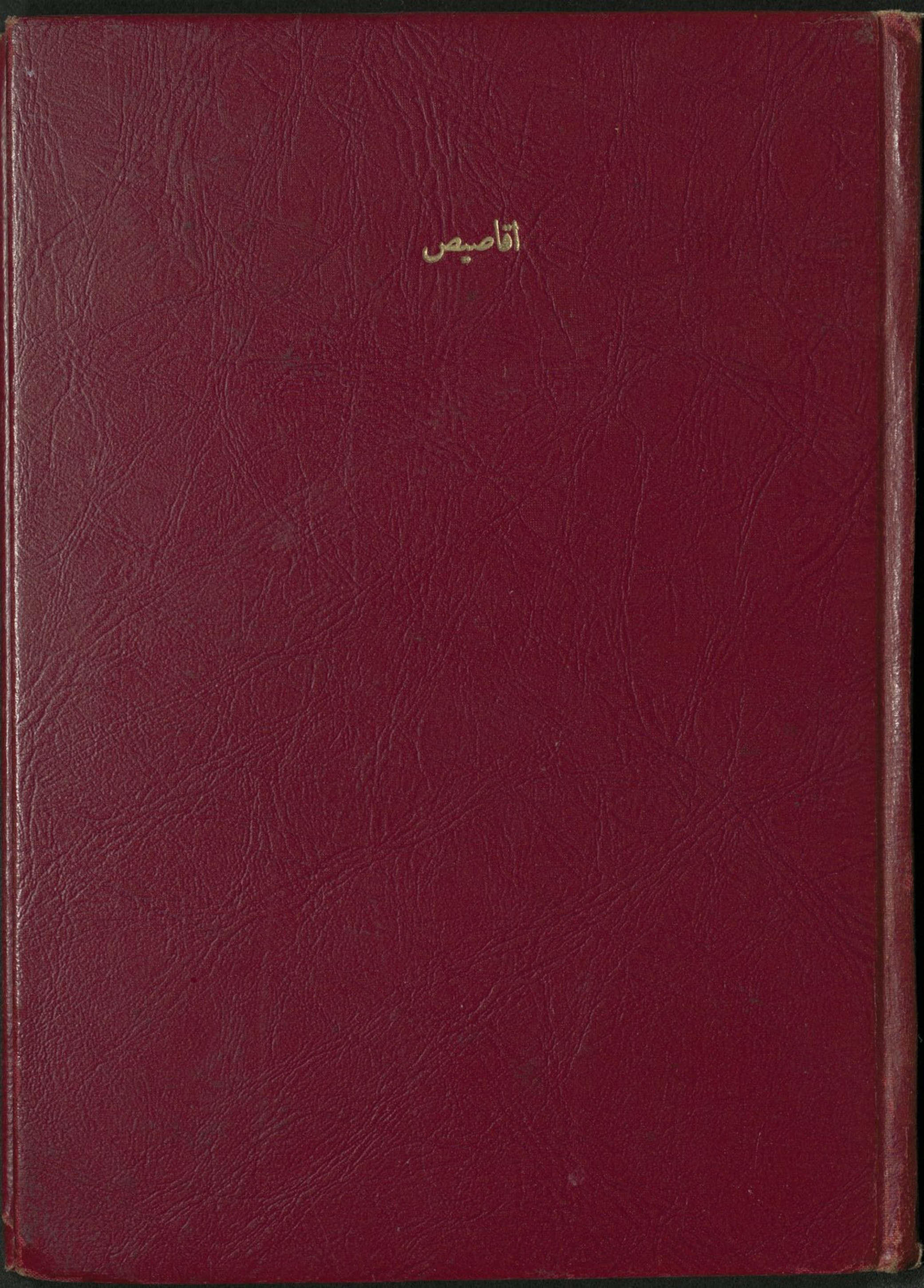
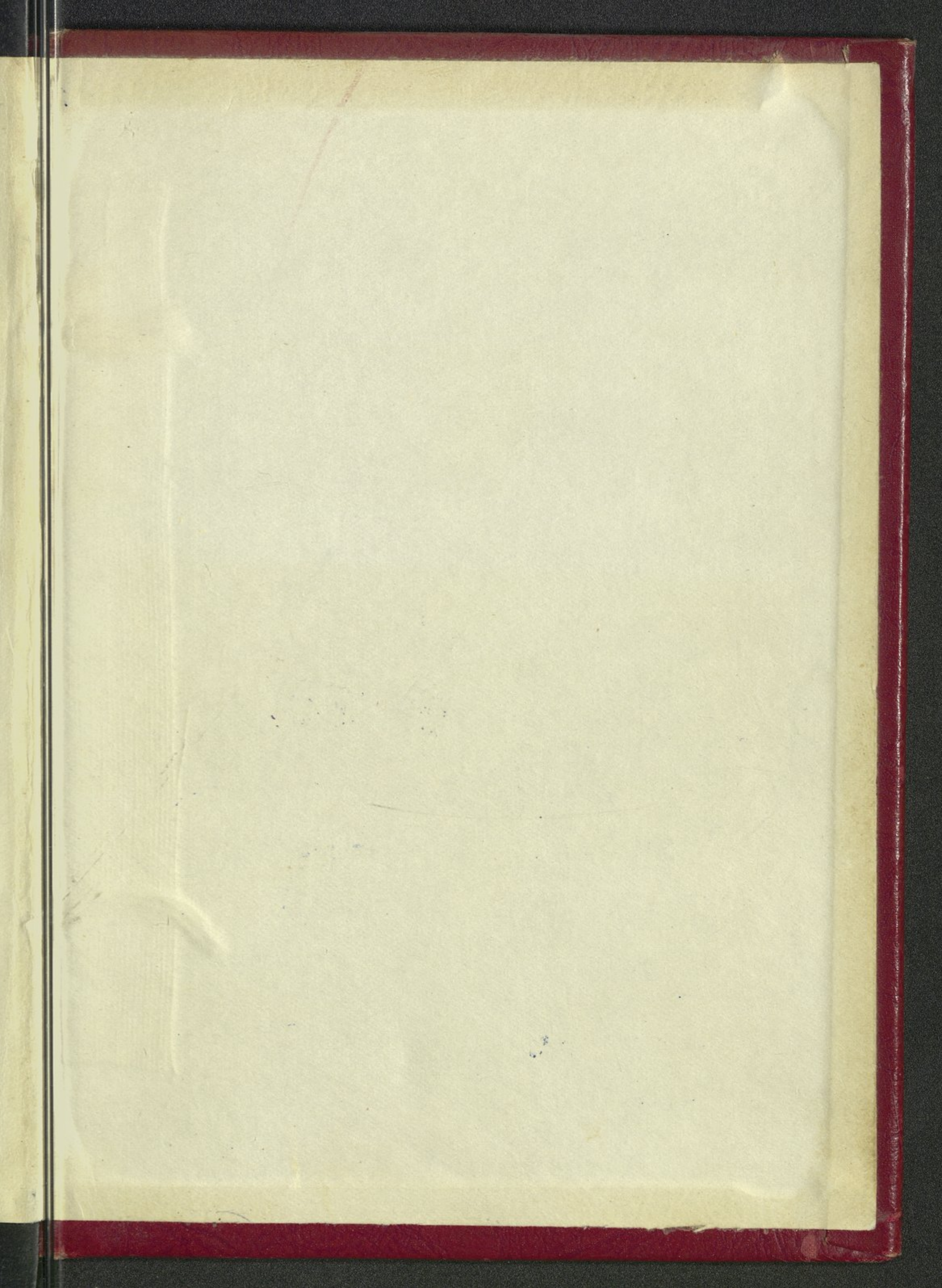
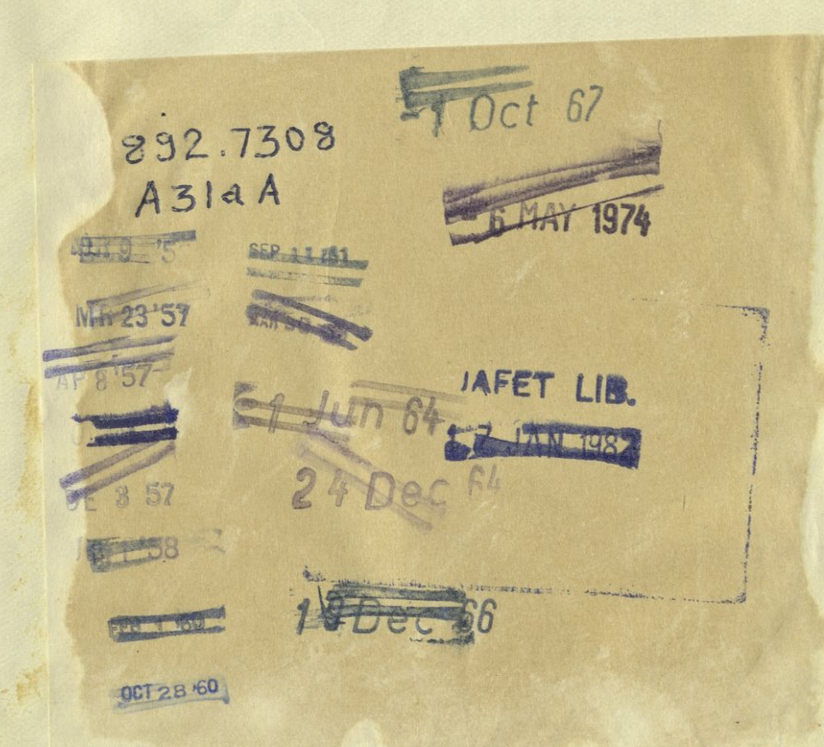

اقاصيص




892.7308
A31aA
Oct 67
6 MAY 1974
MR 23 '57
AP 8 '57
DE 3 57
OCT 28 '60
1 Jun 64
24 Dec 64
JAFET LIB.
17 JAN 1982
Dec 66

لجنة النشر للجامعيين



للأساتذه

ابرهيم المازنى — محمود تيمور
ابراهيم المصرى — سعيد عبده
صلاح الدين ذهنى — عادل كامل
محمد فتحى أبو الفضل — نجيب محفوظ
عبد الحميد جوده السحار

يطلب من

مكتبة مصر ومطبعتها

٦٣ شارع الفجالة

مطبعة مكتبة مصر

لجنة النشر للجامعيين

أصدرت

أحمس	عبدالحميد جوده السحار	مايو سنة ١٩٤٣
رادوبيس	نجيب محفوظ	يوليه سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفارى	عبدالحميد جوده السحار	سبتمبر سنة ١٩٤٣
قنابل	محمود تيمور بك	نوفمبر سنة ١٩٤٣
اخناتون ونفرتيتى	على أحمد باكثير	ديسمبر سنة ١٩٤٣
ثلاثة رجال وامرأة	عبد القادر المازنى	يناير سنة ١٩٤٤
أقاصيص	المازنى، تيمور، المصرى سعيد عبده - صلاح ذهنى عادل كامل - نجيب محفوظ ابو الفضل - السحار	فبراير سنة ١٩٤٤

تحت الطبع

سلامة القس	على أحمد باكثير	مارس سنة ١٩٤٤
ويك عنتر	عادل كامل	ابريل سنة ١٩٤٤
رباعيات الخيام (بالزجل)	حسين مظلوم رياض	« سنة ١٩٤٤



ابرهيم عبد القادر المازنى



« اللهم اجعل هذه من نصيبي ! . . »

وهذه التى يسأل الله أن يقسمها له ، فتاة لو وُزنت بما عليها من ثياب لما زادت ، فيما تحسّ العين ، على ثلاثين رطلا ! ولكنها على صغر جسمها كانت ذات طلاوة وحسن وبهاء ، وكانت دقتها من خَلْق لا من هزال ، وكانت لحسن جسمها - على صغره - يترجرج لحم فخذيها . وقد رآها ، أول ما رآها ، على الرصيف تنتظر الترام ، ولا تستقر فى مكان من قلة الصبر على إبطائه ، فلما جاء الترام بعد أن أزهق الأرواح وقف معها فى الدرجة الأولى بين الجالسين من الرجال الذين كفوا عن إيثار المرأة بالقعود ، وخلا مكان ، فكان من ظرفها أن نظرت إليه كأنما تستأذنه أو تحاول أن تتبين هل يريده لنفسه أو يدعه لها ، فأومأ إليها أن « تفضلى » . وما كادت تفعل ، حتى دار

الترام فجأة وبقوة ليدخل فى شارع آخر ، ولم تكن يده على شيء ، فدار ، وارتمى ، ووقع على حجرها !

وتقبلت اعتذاره باسمة ، وزادت فأقبلت عليه تقول له إن هذا إنما كان بكرهه ، ولم تكن له فيه حيلة ، وإنه « حصل خير » فود لو استطاع أن يؤمن على قولها إن ما حصل إنما كان خيراً ، وإنه استطاب جلسته وإنه اشتهى أن تطول ! ودخل عامل الترام فأدى عنها ثمن التذكرة ، فاعترضت فقال إن هذا بعض « التعويض » فتبسمت ، وشكرته ، ولما نهضت لتغادر الترام هزت له رأسها ، وهى تبتسم .

وكان هذا أول لقاء .

ولكنه لم يكن الأخير . وإذا كان الأول قد جاء عفواً واتفاقاً ، فإن الثانى لم يكن كذلك ، على الأقل إذا اعتبرنا النية والسعى ، فقد ثابر عشرة أيام متوالية على الذهاب إلى محطة الترام التى ألفاها واقفة على رصيفها وبها من الضجر ما بها ، فى الموعد عينه ، وفى ظنه — ومرجوه — أن يكون مسكنها فى هذا الحى . وأن تكون هذه محطة ركوبها ، وأن يكون لها عمل يقتضى أن تستقل الترام فى هذا الوقت كل يوم ، أو على الأقل أن تكون فى نفسها حاجة تخرج لتقضيها . وكان يخطر له أن من العسير أن تكون كل هذه المنى حقا ، ولكنه عاش

متعللا بها أياما عشرة ، كانت له ، على ما فيها من القلق والاضطراب والحيرة والخيبة ، نِعمَ الشُغلان عن حسرته وانكسار قلبه لسوء حاله فى بيته . فقد كان يلقى الأمرين من زوجته ، لا لأنها سليطة اللسان أو صخبة سيئة الخلق ، أو مستبدة عاتية ، فقد كانت على نقيض ذلك لينة القول مطواعا لا تنبو فى العنان ، وتاركة لكل قبيح من قول أو فعل ، ولكنها كانت — فى غير ما تحور فيه إلى إلهام الفطرة — جاهلة ضعيفة الرأى ، قليلة الخبرة والفطنة ، لا تجرى فى أمورها على استواء . وكان فيها إلى هذا جد صارم لا يطيق المزاح أو يفطن إلى الفكاهة أو يقدرها ، وعناد يمنعها أن تريع إلى حجة أو أن تتهم رأيها ، وطمع لا يطيق العُسرة ، وكانت لجهلها تحسب أن واجباتها لا تعدو تنظيف البيت وإعداد الطعام ، أو الإشراف على ذلك بلسانها ، أما واجباته هو - أو حقوقها هى عليه - فلا آخر لها يُعرف . وكانت لا تبدو له إلا فى مباذلها وإن كان لا عذر لها من عمل تباشره - فما كانت تسأم القعود أو الرقاد أو تتولى بنفسها شيئا ، وكان إذا قال لها : « أليس لك ثياب غير هذه تلبسينها ؟ أين إذن يذهب كل هذا المال الذى تنفقينه على ثيابك وزينتك ؟ » قالت له ، وهى تضحك : « ألستُ قد تزوجت وانتهى الأمر ؟ فما حاجتى معك

إلى تجمل وزينة ؟ » فيقصر لأنه جرب أن يفهمها فأخفق .

وكان حديثها ، حين تتحبب إليه أو تتكلف الرقة والدل ، يطير له عقله ، فقد كانت تحاكى الأطفال فى كلامها ، فتقول له مثلا بعد أن ترتدى ثوباً جميلا لتخرج فى زيارة : « هل يستحسن بابا فستان لولو ؟ » وتدور أمامه لتعرضه عليه من كل ناحية . وقد قنصته واستولت عليه بفضل هذا الأسلوب فى الكلام ، لا لأن هذا الضرب من الكلام يعجبه ويطربه ويقع من نفسه موقعا طيبا ، بل لأنه أوهم كل من سمعها تكلمه على هذا النحو أن بينهما حباً . أو على الأقل تفاهما ، وإلا فما هذا اللين فى المنطق ، والدل والملاعبة ؟ ولم تكن « لولو » تختصه أو تفرده بذلك ، فقد كانت تطارد كل أقربائها — وهو منهم — ومعارفها ، وتنصب لهم حبائلها ، حتى لقد قال بعضهم عنها : « إن لولو هذه لا تأنف أن تتصدى لجماعة من الجرذان ، ولكنها لأمر ما ، شاءت أن يكون « صالح » هو « الجرذ الأول » وتركت البقية على الأيام تفر بطرق شتى إلى جحورها . ويقول صالح إنه لا يعتقد أن لولو تعبأ به شيئا أو تحب أحدا أو تبالى غير نفسها ، وإن كل ما هنالك ، فيما يرى أنه هو صار عادة لها ، وأنها على كل حال ، لم تزل به حتى وقع وتزوجها ، وبعد ذلك كفت عن التطلع ، وعفت بالعين واللسان

والفعل ، كأنما كان كل همها أن تتزوج ، فلما نالت مبتغاها ، لم يبق أمامها ما تطمح إليه .

والتقى صالح بفتاة مناه مرة أخرى ، فسلم مستحييا ، وأدى عنها ثمن التذكرة مرة أخرى فلما اعترضت بأنه لا يجوز أن يفعل هذا كل مرة قال : « اسمعى ! إنك مدينة لى بقرش ، ولست أحب أن يضيع علىّ مالى ، ولا أنا أستطيع أن أطالبك بأن تكتبى لى صكا بقرش ، ولكنى أزيد على الدين قرشا كلما تلاقينا ، وأؤخره حتى يبلغ مبلغا يستحق أن يكتب به صك ، وهكذا أحفظ مالى ، فلا تخافى علىّ ، فإنى بعيد النظر دقيق الحساب »

وتحادثا ، وتعارفا ، أليست قد صارت مدينة له بقرشين سيكونان غدا ثلاثة ، وبعد غد أربعة ، وهكذا حتى يبلغ الأمر الجنيهات أحادها ثم عشراتها ؟ وعرف منها أنها موكلة فى شركة « بسنترال » محلى للتليفون ، فيه خمسة خطوط ، وعشرة أجهزة للتليفون موزعة على الغرف . وأنها لا تزال طول ساعات العمل تصل هذا بذاك ، وتقول لفلان كلم علانا .

فسألها : « كيف تطيقين هذا العمل المضنى ؟ »

قالت مستغربة : « ماله ؟ »

قال : « لو كنت مكانك لما صبرت عليه يوما واحدا »

قالت : « إنه ليس أشق من غيره ، ولكل عمل متاعبه ، وما دامت الفتاة محتاجة إلى العمل وكسب شيء من الرزق فإن عليها أن تتحمل وتصبر ، ثم إنه لا يخلو من تسلية ولهو . ومن فائدة أيضا ، فإنى أتعلم أشياء ، وأطلع على أمور وأحوال ما كان الاطلاع عليها يتيسر بغير ذلك ، فإن عامله التليفون أشبه بمجمع الأسرار ، لأن عندها مجمع الخطوط ، ولست أتعمد أن أسترق السمع ، ولكن المدير يأمرنى فى أكثر الأحيان أن أظل على اتصال به وهو يتكلم ، وتقتضى طبيعة العمل ووجوب السرعة فى تلبية الطلبات أن أبقى السماعة على أذنى ، فأنا أجرب الحياة دون أن أخوض ، وأتعلم من غير أن أكابد »

قال : « أنت عاقلة ، على أنى ما زلت أعتقد أنى كنت خليقا أن أزهد فى الفائدة من فرط الضجر . وأحسب أن أعصاب المرأة أقوى أو لعلها أبلد . . معذرة . . »

وعرفت هى أنه وكيل فى شركة مالية ، وأن له مرتبا ثابتا ، ولكن أكثر كسبه من السمسرة المباحة المشروعة . والمعول فى هذا على الاجتهاد ، وعلى قدره تكون الفائدة .

وغادر الترام حيث غادرته ، فقد كانت هذه فرصة لا يدرى متى تتاح له مرة أخرى ، فمن قلة العقل أن يدعها تفلت ، ومشى معها يحدثها عن عمله ويشرحه لها ، ثم قال لها إن فى وسعها إذا

شاءت أن تتتلمذ عليه وتربح أضعاف ما تتقاضى الآن، وأن وجهها وحده يرشحها للنجاح فى كل سعى .

فأطرقت هنيهة وهى تسير إلى جانبه، ثم التفتت إليه وسألته « أتظن ذاك ؟ »

قال : « لست أظن ، فإنى واثق : واسمعى .. إن لك أوقات فراغ ، ولا شك ، فماذا يمنع أن تجربى ما أشير به عليك ؟ »

قالت : « إن وقت الفراغ هو وقت الكف عن كل عمل فى كل مكان »

قال : « إذن انقطعى يوما أو يومين واعتذرى بالمرض ، أو خذى إجازة .. أسبوعا مثلا ، أليس لك حق فى إجازه ؟ »

قالت : « هذا رأى ... الصيف مقبل ، والمدير ينتقل إلى الاسكندرية ، والعمل يفتر ، ومن السهل أن أطلب إجازة أسبوعين ، ولكن هل تظن أنى أنجح ؟ »

قال : « لا شك فى ذلك ، فطاوعينى تكسبى »

***

وقد طاوعته ، واشتغلت معه « من باطنه » وكانت أشبه بسكرتيرة له ، يوجهها إلى الذين يعرفهم ويعاملهم ، ويقاسمها الربح الذى يجنيه ، ثم وسعت هى على الأيام مجالها فكان يدع لها

ما اكتسبت باجتهادها وحسن سعيها وفطنتها ولباقتها ، واقترحت عليه أن يتخذ مكتباً مستقلا ففعل ، فكانت هذه بداية التوفيق .

وتوثقت بينهما الصلات ، كما كان لا بد أن يحدث ، ولم يكن هو ينقصه أن يحبها ، فقد أعجب بها من أول يوم ، وسهل أن يتحول الإعجاب إلى حب ، وعجل بذلك أنه لم ير منها إلا طيب النفس والظرف والسلاسة ، فضلا عن البراعة وذكاء القلب . ولكنها هى كان ينقصها أن تحبه ، وقد كانت علاقتها به فى أول الأمر علاقة فتاة أشار عليها رجل بخير وسداد ، وأسدى إليها جميلا ، فهى شاكرة له ومغتبطة باتصالها به والعمل معه ، ومتطلعة ، بفضله ، إلى حظ أكبر ونصيب أجزل من الخير والنعمة . ولكن علاقتها به لم تقتصر على العمل ، فقد صارا زميلين وصديقين يذهبان معا هنا وهنا ، وارتفعت الكلفة وصارا رفيقين قلما يريان فى أوقات الفراغ إلا معا ، حتى كان المكتب المستقل . فأصبحا كأنهما شريكان ، وإن لم يكن لها أكثر من السمسرة .

وحببه إليها ، وأفرده فى نظرها ، أن كانت له قدرة نادرة على تصور المشاهد القديمة كما كانت قبل أن يعفّى عليها الزمن أو يحيلها أطلالا وأدراسا ، وتمثلها وإحضارها إلى الذهن

ووصفها كأنه يراها . ونشر ما طوته الأيام من حياتها . وكان يحملها فى أيام الراحة إلى الآثار القديمة من عربية أو فرعونية ، أو إلى أحد المتحفين العـــربى والمصرى ، وينتحى بها ناحية ويقعد إلى جانبها ، ثم يقبل عليها يحدثها عن الأثر كيف كان وعن الحياة فيه كما يتخيلها ، ولم يكن يعنى بالجانب التـاريخى ، ولا كان يعرف من التاريخ سوى النزر اليسير الذى يتلقاه كل طالب فى المدارس وينساه جملة أو تفصيلا بعد أن يـكف عن التحصيل والطلب ، وإنما كان « يحيى » المنظر ، أو يعيد بناءه أو يرممه ، ويرسل الحياة تدب فى جوانبه . وكانت «إيلين» لما دعاها أول مرة أن ترافقه فى رحلة «أثرية» تشك فى أنها ستنعم بها أو تحمدها ، ويكبر فى ظنها أنها ستضجر ، ولـكنها آثرت المجاملة والمراضاة ، فسرعان ما خاب ظنها خيبة محمودة! وصارت هى بعد ذلك تلح عليه أن يطوف بها على هذه الآثار واحدا بعد واحد كلما لاحت فرصة .

وقالت له مرة : « لم أكن أظن أنك قوى الخيال إلى هـذا الحد »

قال : « لا أظن أن هذا من قوة الخيال . فقـد كنت فى صدر حياتى أعجز عجزاً تاما عن تمثل أى شىء لا أراه رأى العين ، ولـكنى بعد أن تزوجت أحسست بفراغ مستهول فى حياتى ،

وصرت لا أطيق أن أجالس الناس ولا أرى لى صبراً على ثرثرتهم ، فجعلت أهرب . . . واتفق أن هربت إلى الآثار ، فكنت أجلس الساعة والساعتين على حجر وأجيل عينى فيما حولى ، وأنظر وأنظر ، وأتلهى بأن أتصور المهدوم قد ارتفع ثانية ، والخراب قد صار عامراً ، وهكذا ، وأحسب أن لى ملكة المهندس ، ويخيل إلىّ أنى لو كنت درست الهندسة لكنت اليوم شيئاً محسوبا . . وقد يكون هذا غروراً ، ولكنه يبدو لى أنى كنت أستطيع أن أبتكر طرازاً مولداً لا بأس به » .

فقالت إيلين : « لا شك » ، وعدلت به عما كان يمكن أن يكون إلى ما هو أقرب إلى نفسها فسألته : « ولكن قل لى ، ألست سعيداً مع زوجتك ؟ » .

قال : « لا أدرى ! ربما كان الذنب ذنبى ، ولعلى كنت خليقاً أن أسعد لو كنت ذا قناعة ، أو لو استطعت أن أروض نفسى على الرضى بالواقع ، والحقيقة أنه ما من إنسان يسعه أن يكون إلا كما خلقه الله ، وليس ذنبى مثلا أنى أبدو لك بعد التجربة دون ما كنتِ تودين أو تتخيلين ، ولو فى أشياء دون أشياء ، ويظهر أن الأوْلى بالمرء أن يغض عن مواضع النقص أو العيب إذا شذت فى غيره ليمكن أن تسلس له الحياة . فإن فيه هو أيضاً مواطن ضعف أو عيب أو قصـــور ، ومن

الإنصاف أن نتجاوز لغيرنا عما نطمع أن يتجاوزوا لنا عنه ، والغريب أن الأصدقاء يفعلون ذلك فيما بينهم ، ولكن الأزواج قلما يفعلون . لا أدرى لماذا ؟ على كل حال ، لست أشكو ، وإنما أقول فقط إن الرياضة صعب »

وأقصر ، واستطرد إلى موضوع آخر ، فقد كره أن يطرح حياته الزوجية على البساط ، وأن يتناولها معها ، أو مع سواها بالبحث ، وأنف أن تظن به أنه يستجدى عطفها أو يبتغى الوسيلة إلى قلبها بالشكوى من سوء حظه . على أنها كانت قد فطنت قبل هذا إلى الحقيقة ولم تكن بها حاجة إلى شرح وبيان ، فقد عرفت منه أن له زوجة ، ومع ذلك لا يذكرها قط ، لا صراحة ولا ضمنا ، ولا يقول مرة إنه يود أن يعود إلى البيت ، ولا تبدو منه أية رغبة فى العود إليه ، لا يبالى أن يحيى الليل بالسهر معها ، ولا يستعجل ، ولا يظهر ما يظهر الأزواج من قلق ، وإشفاق ، ولا يتقى أن يراه معها قريب له أو صديق ، وليس هذا بسلوك الراضى عن حياته الزوجية ، أو العانى بها .

وكان هو يخطر له من حين إلى حين أن يعرض على إيلين الزواج ، فيتردد ويحجم ، ويحدث نفسه أنها صديقة خير منها زوجة ، وأن الزواج يجر معه تبعات يحمله إياها ، ولا شك أن للصديقة حقوقها عليه أيضا ، ولكنها حقوق أدبية ، تؤدى من

تلقاء النفس ، وعن رضى وإيثار ، واختيار . دون مطالبة أو إلزام ، والأمر بين الصديقين يقوم على حد التفاهم والتواطن والمحاسنة : فإذا حمدا العهد كان بها ولله الحمد ، وإلا افترقا بالحسنى ولم يخلفا وراءهما إلا الذكرى ، أما الزواج ، فأمر حاسم ، وهو يفرض واجبات ويخلق حقوقا ، ولو كان غير ذي زوجة لما استعظم ذلك أو تهيبه ، ولعده طبيعيا مقبولا ، ولكن له زوجته ، وفى وسعه أن يسرحها ، إذا أطاع هواه ؛ غير أن أباها مات ، فانتقلت بأهلها الحال ، ورقت وضاقت ، فليس من المروءة أن يتخلى عنها ويلقى بها على الضيق والشدة ، ثم إنه ليس من العدل أن يطالبها بأكثر مما تحسن أو تعرف ، أى بما يجاوز طاقتها ، والذنب لأبويها اللذين أهملا تربيتها ، بل الذنب له هو إذ تزوجها وهو عارف بقصورها ، وإذا كان قد ضعف واستقاد لها ، وترك عنانه يسلس فى يديها ، فإنه هو الملوم ، وليس من حقه أن يحملها تبعة ضعفه .

ثم إن إيلين أجنبية ، وقد حمد سيرتها إلى الآن ، ولكن من أدراه أنه لا ينكر غداً ما عسى أن يكون منها إذا اتخذها زوجته ؟ إنها الآن تؤثره بالمودة والصحبة ، وتهمل أهلها ومعارفها لتكون معه ، وتفعل هذا باختيارها ، ولكن غداً ؟ أليس المعقول أن تود أن تحيط نفسها بعشيرتها ، وأن تحيا

فى الجو الذى شبت وترعرعت فيه وألفته ؟ وهذه بيئة لا يعرفها ولا يدرى أتطيب له الحياة فيها أم لا تطيب ، والأرجح أن يلف نفسه فيها غريبا نابيا ، وهؤلاء الفرنجة يرخون الحبل لنسائهم إرخاء يجاوز فى رأيه هو الحد المأمون المغبة ، فالخير كل الخير أن يعرض عن الزواج ، فهل تراها ترضى بمنزلة الصديقة ؟ وهل يحسن أن يخاطبها فى ذلك أو يدع الأمور بينهما تجرى مجراها ؟

واتفق يوما أن كانا فى مقهى على النيل يتغديان ، وكان مجلسهما قريبا من الماء ، فمر زورق فيه فتى وفتاة ، وكان الفتى يناهز العشرين والفتاة دونها ، فقال صالح فجأة ، وبغير مناسبة ظاهرة ، كأنه يجيب عن سؤال يدور فى نفسه : « نعم : الجيل الجديد بخير . وإنما كبر وشيخ فجأة وقبل الأوان ، فى فترة هذه الحرب ومن جرائها ، أمثالى ممن هم بين الثلاثين والأربعين . انظرى إلى هذين فى الزورق السابح ! أتظنين أنهما عاشقان ، أم هما يلهوان ؟ » .

قالت : « بل أظنهما عاشقين قديمين » .

قال : « متى تراهما عرفا أنهما حبيبان ؟ هل قرأت قصة الرجال الثلاثة الذين نجوا من سفينة ضربت بالطوربيد فى المحيط الأطلنطى ، وقضوا عدة أيام على طوف ؟ »

قالت : « لا أظن »

قال : « إنها قصة تصور مأساة الحياة — وأملها أيضا ! فقد ظل هؤلاء الثلاثة يسبحون أياما تحت الشمس الاستوائية المحرقة ، ولا شيء معهم سوى قطعة من شراع ومجداف واحد ، وما انطووا عليه من أمل أو إرادة ، ولا طعام ، ولا ماء ، فأشفوا على الموت جوعا — وظمأ على الخصوص — ونفد صبر أحدهم ولم تعد له طاقة على الاحتمال ، فتناول كوزاً لا يدرى أحد كيف بقى معهم أو من ذا جاء به ، وغمسه فى الماء ثم رفعه وشرب ! فإذا به ماء عذب ! ماسخ قليلا ولكنه عذب ، ذلك أنهم كانوا قد قذف بهم ، وهم لا يدرون ، إلى قريب من مصب نهر الأمازون العظيم . ولم تكن الأرض تبدو لهم ، ولكن قوة اندفاع الماء المتدفق من هذا النهر العظيم ستقهم حتى على هذا البعد ماء عذبا ، وتصورى هؤلاء الثلاثة المساكين وقد انكبوا على وجوههم فوق الطوف وأقبلوا على الماء يتناولون منه بأيديهم ويشربون ! يشربون ماء سائغا فى المحيط ! ألا تدركين مغزى هذا ؟ » .

قالت : « أتعنى هذين العاشقين ؟ » .

قال : « إنما أعنى نفسى . أنا الذى وقع على الكوز ، وأنت ذلك النهر الذى اندفع إلىّ ماؤه وسط المحيط الملح

الآجاج . ويخيل إلى الآن ، أنى لست على الأرض ، بل على طوف يشيله الموج ويحطه وحولى ماء فى حيثما أدير عينى ، ولا قطرة تبل الريق وتفشا الظمأ ، وحولى الناس ولكن ما من أحد أستطيع أن أكلمه أو انتجيه ، أو أحفله ، ثم جئت ، فحلا الماء وارتوى القلب وانتعش الفؤاد » .

وأمسك هنيهة ، ثم قال متحديا : « أتعدين هذا تخريفا ؟ »

قالت برقة : « إذا كنت تخرف فلست خيراً منك »

واغرورقت عيناها .

* * *

ومضت الشهور ، ورأت الزوجة من حال زوجها مافتح عينيها جداً ، فقد تغير ، وتطلق وجهه واعترته خفة دائمة ، وصار يدخل ويخرج وهو يدندن ، ويترنم ، وتكلمه فلا يسمع ، وتلاحقه من غرفة إلى غرفة فلا يجعل باله إليها ، ولا يحفل ماتقول أو تفعل . ويلقى إليها بحاجتها من المال ، ثم ينساها وينساه ، كأنها ربة فندق ينقدها أجر المبيت ـ والطعام أحياناً ـ ولا شأن له بها بعد ذلك ، ولم تكترث لهذا فى بدايته ، فما كانت مزيتها الذكاء وسرعة الفطنة ، ولكن الأمر طال ، وشق عليها الإهمال ، فكابرت وتشددت ، ولكن شبابها ريان ، والهجر أليم ؛ والأوام شديد ، والصبر عسير ، فماذا أصابه

وأصابها ؟ إنه بخير إذا صدقت الظواهر — سن ضاحكة ، وعناية بالهندام غير معهودة ، وخفة ومرح ... أماهى ؟ ونظرت إلى نفسها فى المرآة ، فلم تر أنها نقصت شيئاً ، أو أن شقاً لها مال ، أو أنها احدودبت ، فماله يعرض عنها هذا الإعراض ؟ عسى أن تكون هذه المباذل هى العلة ! ونضتها ، وارتدت ثيابا أنيقة ، ولكنه ظل على صدوده ، ولم تأخذ عينه حتى ماصارت تتوخى أن تلبسه له ، أفترى جسمها أدبر ويبس أو اعترته رخاوة ؟ وأرسلت يدها تتحسس ، وتجس ، ثم هزت رأسها وقالت لنفسها ، كلا ! لابد أن تكون هناك امرأة أخرى ، وأيقنت أن الأمر كذلك ، واحتدم جوفها من التغيظ والغيرة ، وهمت بالتحرش من فرط الحقد والعجز عن التشفى ، ولكنها خشيت أن يزيده ذلك إمعانا فى الجفوة ، وإذا كان قد نبا بها وهى وادعة ساكنة ، ومؤاتية مطواع ، فكيف إذا ثارت به ووقعت فيه وأغضبته ؟ أينقصه أن ينفر حتى تأتى مايسخطه ؟ وكبحت نفسها بجهد ، وحدثت نفسها أن هذا أمر تجدى فيه الحيلة مالا يجدى الهياج والطيش . وخافت إن هى عنفت أن يبت الحبل ، فإنها كلمة تخرج من فمه فينتهى بها كل شىء .

وصارت تحتفل بزينتها ، وتعنى ببيتها ، فقد كان لابد أن تشغل نفسها بشىء ، وإلا جُنت ، ولكنها كفت عن التودد ،

أو التكلف فيه ، وراحت تستخبر وتتنطس ، بأخفى ماتقدر عليه ، ومن حيث لايعلم هو ، فجاءتها أخبار على غير وجهها ، فلم تسكن إليها ، وشكت فيها ، وعادت للسؤال عنها ، فقد صار همها هذا ، وحياتها كلها تدور عليه ، ، ولم تزل دائبة لاتمل ولا تفتر حتى اطلعت على باطن الأمر .

ولم تقل شيئا ، ولكنها اعتزمت أمراً

وكان اليوم أحدا ، وصالح لايزال راقداً ، فخرجت وطرقت باب إيلين ووقفت أمامها باسمة الثغر - تكلفا - وقالت :

« حضرتك الآنسة إيلين »

« نعم »

« هل تسمحين لى بالدخول ، فإنّ لى معك لحديثا »

« تفضلى »

فتفضلت ، وقالت وهى تنزع قفازها :

« لا داعى للف ، أنا زوجة صالح »

« ولماذا جئت ؟ »

« لأقول لك باختصار إنى أعلم إنك خطفت زوجى ، ولكنى لا أنوى أن أدعه لك ، بل ساسترده »

« ثم ماذا ؟ »

« لاشى ! هل تحبينه ؟»

« هل يعنيك أن تعرفى ؟ »

« وماذا يعنينى إذا لم يعنى هذا ؟

« نعم أحبه »

« لمـاله ؟ »

«لنفسه»

« ولو لم يكن له مال ؟ »

« سيان . . . ألم أقل لك إنى أحبه ؟ »

« مسكينة ! »

« لمـاذا ؟ »

« لأنى سأسترده، مافى هذا شك »

« كان أولى أن تحتفظى به - هذا كان أسهل »

« لا أنـكر أنى كنت غبية ، ولـكنك علمتنى أشـياء . . . وأعترف أن ذوقه حسن ! »

« أشـكرك »

« بل أنا المدينة لك بالشـكر ، لأنك عرفتنى قيمة زوجى ، وعرفتنى مقدار حبى له »

« يظهر أنك عرفت هذا بعد الأوان »

« لا ليس بعـد الأوان .. إنك امرأة مثلى . فأنت تعرفين ماذا تستطيع المرأة المصممة حين يصح عزمها على شىء »

« هل ترين فائدة فى هذا الـكلام ؟ »

« نعم . فإنى أرجو أن تقتنعى بأنى أولى به ، وتعفى نفسك وتعفينى من عناء طويل ، وآلام كثيرة »

« يظهر أنك ناسية أن له هو رأياً فى الموضوع » .

« لا ، لست ناسية ، ولـكننى ظننت أنه قد ينفعك أن تفكرى فى مصيرك » .

« مصيري هو شأنى » .

« طبعاً ، ولـكن هل تظنين أنه يدعنى ويتزوجك ، أو يتزوجك علىّ ؟ »

وكان هذا السؤال نفسـه يدور أحياناً فى نفس إيلين ، فيعجلها عن الجواب أو يصرفها ويذهلها عنه ماهى فيه من نعيم الحب ، فأطرقت ولم تجب ، فما كان يسعها أن تجيب بنعم ، ولا كانت تطيق أن تجيب بلا .

ونهضت الزوجة ، ولبست قفازها وقالت وهى تمضى إلى الباب : « يحسن أن أذهب الآن ، وشكراً لك على حلمك ولطفك » .

* * *

لم تـكن لولو ذكيه ، ولـكن فطرتها كانت سليمة ، وقد ترك حديثهـا أثره فى نفس إيلين ، وكان السخط أول ما جاشت به

نفسها على لولو ، وزعمت أنها جريئة ، بل صفيقة ، ولكنها ما لبثت أن راجعت نفسها ، ولم تفىء إلى الرضى ، ولكنه لم يسعها إلا أن تعترف بأن لها عذراً ، فإنها زوجة أهملها بعلها ، وقد تكون لها عيوبها ولكن لها مزاياها . ودار فى نفسها على الخصوص مانبهتها له لولو من أن صالحاً لن يتزوجها . فتفكرت فى مصيرها معه ماذا عسى أن يكون ؟ وحدثت نفسها أنه لن يزيد على ماهو حاصل ، وأنها لن تعدو منزلة الصديقة ، فما رأته يعنى حتى بأن يعرف أهلها ، ولابدا منه أكثر من أنه يعدها معاذاً يلجأ إليه ويهرب مما ينفره أو يسخطه من بيته ، وهو خليق أن يمل على الأيام ، وقد يعجل بذلك سعى لولو لاجتذابه ورده إلى عشه ، وهو على كل حال ليس ممن يطلقون نساءهم ، وإلا لفعل من زمان طويل ، فما يقيده بها ولد أو غيره .

وبكت إيلين من الغيظ واليأس ، فقد كانت تحب صالحاً ، غير أن صالحاً لا يبادلها هذا الحب ، وإنما يرتاح إليها ويتعزى بها ، لأنه يجد عندها ماحرمه . وما يسهل أن يعود فيظفر به فلا تبقى به حاجة إليها ، فلا مستقبل لها هنا .

وراحت إيلين بعد ذلك تصل ما كان انقطع — أو كاد — من صلاتها بقومها وحرصت على أن تبقى مع صالح بالقدر الذى يرضيه ويرضيها ، ولا يحرمها اجتماعها بعشيرتها ومخالطتها إلى حد ما .

وكانت لولو من ناحيتها جادة فى تألف النافر واسترضاء الساخط ، حتى لم يسع صالحاً على الرغم من ذهوله عنها وإهماله لها إلا أن يتنبه ، فاستغرب إلى الأمر ، ثم التفت وصار يلقى باله إليها ، وهو يتكلف الإغضاء ، ثم ماعتم أن لاحظ أنها تغيرت عما كان يعهد ، بل أنها صارت امرأة جديدة ، وخالجه شيء من الأسف والندم والعطف ؛ لأنه يهمل هذه المرأة التى تجتهد له ، ولاتشكو ، ولايبدو عليها حتى أنها تضمر ماتشكو منه ، ولم يكن يعرف السر فى هذا التغير ، ولا كان يدرى أنها قابلت إيلين ، حتى أخبرته هى بذلك فى سياق كلام جاء عرضا .

وكان قبل ذلك يحسب أن امرأته لاتباليه ، فإذا به يتبين أنها تحبه وتحرص عليه وتعنى به ولا تحجم عن الكفاح والمناضلة للاحتفاظ به ، فرق لها قلبه ، وأى رجل لايسره أن امرأته تحبه هذا الحب وتقاتل غيرها عليه ؟ فأقبل عليها محاذراً متحرزاً ، ولم يجد عناء لأن التمهيد كله كان من جانبها ، وحتى بعد أن عاد إلى مألوف الرجل مع امرأته ، لم تنبس بكلمة عن إيلين ، لاصراحة ولاضمنا .

وصار همه هو أيضاً أن يجعل صلته بإيلين بحيث لاتجور على حياته الزوجية أو تفسدها . ووجد من إيلين عوناً لم يكن يتوقعه فبقيا صديقين ، يعملان معاً ، وينعمان بصداقتهما ، ولكن لكل منهما مراده ومبتغاه - حتى صارت علاقتهما آخر الأمر « على الهامش »

محمود تيمور

البديل

نشأتُ يتيمَ الأب والأم ، أعيش مع عمّى فى منزل الأسرة بحلوان ، وكنت أبلغ من العمر العاشرة عند ما وقعت هذه الحادثة التى أرويها ، وقد أخبرونى أن أبى قد مات وأنا رضيع ، أما أمى فقد توفيت ولى من العمر أربعة أعوام ، فلا أذكر منها إلا طيفاً خفيفاً ، قليلا مازارنى وسرعانَ ما اختفى ، وكانت تعيش معنا سيدة تدعى « الست عيوشة » من أقارب عمى ، ولم تكن بالمرأة المحبَّبة إلىّ ، هى نحيفة طويلة صموتاً ، جافة الطبع ، لها نظرات كريهة وابتسامة خاطفة تبعث الاشمئزاز فى النفس .

وكان عمى يعاملنى بشدّة ولكنه يُشعرنى بعض الأحيان بشىء من العطف ، وكنت أخافه وأكره منه غلوّه فى التحفظ

ودقّته البالغةَ فى النظام . يبلغ الستين ، مديد القامة ، حاد النظرات يسير فى خطوات عسكرية متثاقلة . يلتزم فى حياته نظاماً دقيقا لا يحيد عنه ، فلا أتذكر أنه تأخّر مرة عن موعد الأكل وإذا حلّت العاشرةُ مساء وجدته أمام مكتبه غارقاً فى أبحاثه القضائية .

* * *

كنت فى ذلك الوقت فى مستهل الإجازة الصيفية ، أقضى يومى إما فى حديقتنا الصغيرة أتسلّق الشجر مع أولاد الجيران أو ألعب الكرة معهم .

وبينما كنا نلعب ذات يوم بالكرة أمام الدار إذ رأيت سيدة تخترق الشارع . فلما رأتنا نتقاذف الكرةَ وخشيت أن يصيبها منها أذى سارت على الرصيف بجوار الحائط متجنبة مرماها . كانت حسناء فى مقتبل العُمُر ، ذات شعر أصفر يلمع لمعان الذهب تجذب الأنظار بأناقتها وزينتها ، وتمسك بعصاً فى يمينها تعبث بها يمنة ويسرة .

وما هى إلا أن قذف أحدهم الكرة فانطلقتْ صوْب السيدة وكادت تصيبُها لولا لحاقى بها وتحويلى سيرها . ونظرتْ إلينا السيدة نظرة بين الغضب والعتاب ، ولكن ما كاد بصرها

يقع علىّ حتى توقفتْ عن المسير ، وأخذت تلاحظنى . ثم ابتسمت لى فى رقـّة فلم آبه بها واستأنفت لعبى ، ورأيتها واقفة مكانها بضع دقائق تتبعنى بنظرها المشغوفِ حيثما تنقّلت .

وفى مثل ذلك الوقت من اليوم التالى رأيت سيدة الأمس تسير على مقربةٍ منا فى خطوات متمهّـلة فما إن وصلتْ إلى شجرةٍ على جانبٍ الطريق حتى وقفت فى ظلها ترقبنا ونحن نلعب وشعرتُ بها تخصـّنى — دون رفاقى — بنظرتها . وبعـد برهة لمحتها تشير إلىّ بيدها تستدعينى إليهـا فلم أستجب وواصلت لعِبى ، وظلـّت السيدة تلاحظنى فى اهتمام ، فضايقتنى هـذه الملاحظةُ بعض المضايقة فارتبكت وهجم علىّ وقتئذ زميل أوقعنى وانتزع الكرة منى ، ورأيت السيدة تهرع إلىّ وتساعدنى على النهوض وتنفض التراب عن ملابسى ، ثم انتحت بى ناحية وسألتنى :

— هل أصابك ضرر ؟ .

فأجبتها :

— كلا . . . !

وأخذت تدقق النظر فىّ ثم قالت :

— يالله ! أنت مجروح ! !

— مجروح !

— جرح خفيف . خفيف جداً . . .

وكان صوتها موسيقياً عذبا أطربنى ، فأصغيت لها ، وأخرجتْ منديلها وأخذت تمسح جرحى وتجفف عرقى . فانبعث من المنديل عطر جميل أنعشنى وقالت لى :

— أأنت الآن أحسن حالا ؟ .

— لم لا أكون أحسن حالا وأنا لم أصب بضرر ؟ !

فابتسمت وشعرتُ بأن إجابتى كانت جافّة . ورفعت بصرى إليها فوجدتها تحدّق فىّ ، وقد بدا عليها حنوّ غريب فاختلج قلبى وقلت :

— نحن نلعب بالكرة دائما وكثيراً ما وقعنا .

— أين تسكن ؟

— هنا .

وأشرت إلى منزلنا ، وجعل أحد رفاقى ينادينى :

— واصف ! واصف !

فقالت السيدة :

— أهو اسمك ؟

— نعم . .

فانحنت على جبينى تقبّله وأمرّت يدها على رأسى تلاطفه . ثم قالت : انطلق إلى أصدقائك ياحبيبى .

وانطلقتُ ألعب . أما السيدة فشيّعتنى بنظرة طويلة ، ثم تابعت سيرها بطيئة الخطا .

وفى المساء اجتمعتُ كعادتى بعمّى و «الست عيّوشه» على مائدة العشاء . وكان الصمت مخيّما علينا كشأننا فى كل ليلة : «الست عيوشه» فى جلستها العسكرية لايفارق وجهُها الطبق ، تتحرك كأنها آلة بِزُنْبُرُك ، وعمى بملامحه الصُّلبة ورأسه المرفوع لاتغادر عينه الجريدةَ ولا يبادلنا حرفا . . وأخيراً نظر إلى «الست عيوشة» وقال لها :

— أسمعت بجارتنا الجديده ؟

فتقلّص وجه « الست عيوشة »وقالت وجسمها لم يتحرك قيد أنملة : أىّ جارة تَعْنى ؟

فابتسم عمى ابتسامته النكراء ، وقال :

— جارتنا الجديدة التى سكنت منزل المرحوم « رءوف بك » فى الشارع المجاور لشارعنا ! ،

وصمتت «الست عيوشة »كأنما أخجلها أن يغيب عنها هذا الخبر ، فقال عمى .

— يظهر أنك لست من أهل الدنيا ، إن خبرها شاع وذاع فى حُلون ،

فقالت« عيوشة» :

— وما أمرها ؟

فأجاب عمى وما تزال على فمه ابتسامتُه الماكرة :

— إنها جاءت من الاسكندرية لتنشر فى هذا البلد الصغير وباءها .. وباءها المهلك المبيد . . . ! !

فجحظَت عينا « الست عيوشة » ولكن رأسها لم يهتز ، وقالت : أمريضة هى ؟

— وأشدَّ من مريضة ... إنها من النوع الهدّام الذى يخرِّبُ البيوت ويقوِّض سعادةَ الأسر ، إنها ... إنها .. ألا تفهمين .!

— فاهمة ! !

— سمعت أنها كثيرة التبرج ، ولها شعر أصفرُ لابد مصبوغ . . .

— مؤكد ، إنه مصبوغ ! !

— وقد رأوها تسير بعصاً فى الطريق .

— كيف ؟ أعجوز هى ؟

— أجهل عمرها .

— لابد أنها تخفى سنّها تحت طِلاء المساحيق الثقيلة . . . يالله ! ... ماأبشعها ... !

وكان قلبي في أثناء ذلك يدّق دقاً عنيفاً ووددْت لو تمكنت من وقف هذا الحديث ، وسمعت عمى يقول :

— أرأيتِ سيدةً تسير بعصاً في الطريق ؟

فقلّصت « الست عيوشة » فمها مستنكرة وصمتَ عمى برهة ثم تكلم في حزم وتشدد قائلا :

— أحرم عليكم مقابلة هذه المرأة أو اتصالكم بها ....!!

فقالت « الست عيوشة » وقد زوت مابين حاجبيها :

— معاذ الله أن نتّصل بهذه الفاجرة !

وقبل أن يترك عمى الحجرة ألقى علّى نظرة حادّة كأنه يقول لى : أفاهم أنت ؟

وعند ما استوثقت أن عمى صار بعيداً عنا قلت للست «عيوشة» : عجيب أن يتحامل عمى على هذه السيدة مع أنه لم يرها !!

— وما شأنك وهذا ؟ أرأيتها أنت ؟

— أنا ؟ أبداً .. ولكن خبريني إذا حدث مثلا أنى رأيتها تسير في الطريق الذى أسير فيه فماذا أفعل ؟

— تمهّل ريثما تخلى لك الطريق .

— وإذا رأيتها تقترب منى وتحاول أن تُكلمَني ؟

فرمقتنى « الست عيوشة » بنظرة فاحصة ، فاختلج قلبى ، ورأيتها تبتسم بغتة ابتسامتها الشيطانية وتقول :

ـــ أراهن أنك رأيتها وكلمتها . . .

فانطلقت أنكر فى تحمس ولكنى أحسست أن إنكارى ضعيف وأن صوتى يخذلنى . ورأيت نفسى بعد حين أقول « للست عيوشة » :

ـــ أقسم بالله العظيم أنى لن أراها ولن أكلمها بعد اليوم، لاتخبرى عمى بشىء !

وتشبثت بجلبابها مسترحماً ، فوقفت صامتة تحدجنى بنظرها البغيض، ثم سارت متئدة الخطوات مرفوعة الرأس إلى حجرتها.

٭٭٭

وانقضت ثلاثة أيام لم أخرج فيها إلى الشارع تفاديا من احتمال مقابلتى تلك السيدة ، أما عمى فقد ذكرها مرة أخرى ونحن على المائدة فى حديث مقتضب كله سخط وثورة . فآلمنى ذلك منه . وعجبت لهذا الرجل الذى يزج بنفسه فى كل أمر ويريد فرض سلطانه على كل إنسان .

وفى اليوم الرابع خرجت إلى الطريق يدفعنى أمل غامض إلى لقائها وتجاهلت ماأمر به عمى . بل شعرت بشىء من الزّهو والسرور فى تحدية ، وأخذت أروح وأجىء أمام المنزل أرقب ظهورها.

ولما طال انتظارى ولم تحضر سرت الى الشارع المجاور حيث منزل « رءوف بك » الذى تسكنه ، فلما اقتربت من بابه وقع

نظرى عليها فى الحديقة ، وكانت تقطف الأزهار ،ووقفت أمام الباب ساكناً أنظر إليها وأنا مفتون بجمالها ، ذلك الجمال الذى يغمر قلبى بحنوه وطبيعته ، كانت تنتقل بين شجيرات الورد فى ثوبها البديع وشعرها الأصفر يتموج حول رأسها فيخيل إلى أنى أشاهد ملكاً من سكان السماء .

ولأمر مالفتت وجهها ناحية الباب فرأتنى ، ولشد ما كانت فرحتها ! فألقت بزهرها على الأرض وهرولت إلى وهى تقول:

— واصف ! تعال ، ادخل ياحبيبى ادخل .

وحوطتنى بذراعها وقبلت رأسى ،يالله من ذلك الشعور الغامض اللطيف الذى أحسست به فى تلك اللحظة ! !

وأخذت بيدى ودخلت من الحديقة وجمعت ما انتثر من أزهارها وقدمته إلى وقالت :

— اختر لك منها مايحلو .

وأخذت تساعدنى فى اختيار أحاسنها ،ثم قدمت إلى الصحبة وهى تقول :

— هى لك ياحبيبى !

وكان فى الحديقة دكة فجلست عليها وأجلستنى بجانبها ، وجعلت تحدق فى وجهى طويلا وتمسح رأسى ، واكتسى جهها بالحزن ، ورأيتها تمسح عينيها بحركة خفية ثم قالت:

— لماذا لم تلعب بالكرة مع أصحابك فى ثلاثة الأيام الماضية؟

فطأطأت رأسى وقلت :

— كنت متوعكا قليلا ... ولكن من أخبرَكِ بأنى لم أظهر فى هذه الثلاثة الأيام ؟

— ذهبت بنفسى حيث تلعبون . . . وكنت أنتظرك كل يوم .

فعجبت من هذا الاهتمام وشعرت بشىء من الخجل . . . ووقع بصرى فى هذه اللحظة على باب الحديقة فتذكرت أمراً أشعرنى بخوف وتلفت حولى فرأيت « ظلة » بعيدة عن الأنظار فرفعت بصرى إلى السيدة وقلت لها :

— ألا يمكننا أن نجلس فى هذه الظلة بعيدين عن الباب ؟

فابتسمت لى ابتسامة لطيفة وقالت :

— ما رأيك فى أن ندخل المنزل ؟ . . . لدىّ شىء أريد أن أريك إياه ؟ .

وقامت وهى ممسكة بيدى وسارت بى إلى المنزل وأنا طائع وأجلستنى فى الردهة الداخلية ، فإذا بها حسنة التنسيق بديعة الأثاث مزينة بصور كثيرة . وفى ركن من أركانها « بِيان » كبير . وعادت السيدة بعد قليل تحمل صندوقاً جميل الصنع عليه نقوش طريفة وفتحته أمامى فوجدته يحوى مجموعة منوعة

من الحلوى اللذيذة الغالية الثمن . وقالت لى وهى تقدمه إلىّ :

— كل ماتشاء منه ثم احتفظ به لك .

فعظم الأمر علىّ ، وقلت متلعثما .

— كلا . هذا كثير !

فوضعت الصندوق على ركبتى وقالت :

— إذا لم تأخذه ساءنى ذلك منك .

— ولكن . . .

وأخرجت قطعة من الحلوى ، وقالت لى :

— افتح فمك . . . ! افتح . . . !

وفتحت فمى فرمت بالقطعة فيه وأخذت تضحك فانطلقت أضحك أنا أيضاً . وبعد أن أكلت القطعة قلت لها بلا تردد :

— سأحتفظ بالصندوق لئلا أكدّرك ، ولكنى سأبقيه عندك وسآخذ منه كل يوم ما أحتاج إليه .

فنظرت إلىَّ ملياً ثم قالت :

— إنهم سيسألونك بلا ريب عمَّن أعطاك إياك . . . فاتنى أن أفكر فى ذلك .

ثم صمتت برهة وهى تحدق فىّ وقالت :

— أتحب عمّك ؟

— أحبه قليلا ، ويحبنى قليلا !

— و « الست عيوشه » ؟ !

— لا أحبُّها ولا تحبّني !

ونظرت إليها مدهوشاً . وقلت :

— أتعرفينها ؟ .

فقالت فى لهجة طبيعية :

— وهل من الصّعب أن يعرف الجار مايهمه عن جاره .. تعال . . . !

وقمت إليها فذهبت بى إلى « البيان » وجلست على مقعده ، وأجلستنى على ركبتيها واحتضنتنى بإحدى يديها . وأخذت يدُها الأخرى تنقر نقراً خفيفاً على « البيان » فيصدر عنه نغم هادىء لطيف . وأحسست فمها يلمس رأسى ويقبّل شعرى . ثم قالت فى صوت موسيقى هادىء :

— كان هناك طفل يسألنى دائما أن أعزف له هذا النشيد وأن أغنّيه له . طفل جميل كان يحبّنى وأحبه . فجاءنا ليلة زائر كريه ممقوت يلبس السواد مقنّع الوجه بقناع حالك وانتزعه منى ثم خرج به إلى الظلام واختفى . . .

فسألتها وأنا أحدّق أمامى :

— وأين ذهب الزائر بهذا الطفل ؟

فأجابت فى صوت مختلج النّبرات :

— ذهب إلى حيث لا يعود الناس ... ذهب إلى آفاق نائية ، سنذهب كلنا إليها يوماً ولا نعود ...

وتابعت كلامها ويدُها تنقر على « البيان » هـذا النَّغم الهادئ اللطيف :

— سأغنى لك هذا النشيد علَّه يروقُك كما كان يروق ذلك الطفل العزيز . كنت دائماً أجلسه هذه الجلسة فأحوطه بذراعى وألمس شعره بفمى ، وأملأ صدرى بعبير شعره الذهبى . . . اسمع . . . اسمع . . . !

وأخذت تغنى الأُنشودَة فى صوت عذب حنون ، ونغمات « البيان » تصاحبها فى تناسق جميل فيتكوّن من امتزاج الصوت بالعزف وَحدَة تامة حتى ليصعب على السامع أن يفرّق بينهما . فيخيل اليه أن « البيان » هو الذى يُغنى ، أو أن السيدةَ نفسها هى مصدر ذلك النَّغم تعزفه بلا كلام على أوتار قلبها !

أى تصور هذا الذى يغمرنى إلى هذا الوقت ، شعور عذب شملنى باطمئنان هادئ لطيف ، شعور أثار بين جوانحى ذكرى محبّبةً لمشاهد منزوية حُرمتها من قديم .

وبينما أنا على هـذا الحال ، إذ شعرت بالسيدة تلتفت خلفها مرتاعة ، فالتفتُّ — وكان الغسق قد أخـذ يَشيع فى

الحجرة — فوقعت عينى على شبح بجوار الباب يتقدم نحونا ، وتبادرتْ إلى ذهنى على الفور حكاية ذلك الزائر الممقوت الذى يلبَس السّواد ويقنّع وجهه بنقاب حالك ، ذلك الذى اقتحم منزلَ السيدة فى إحدى الليالى وانتزع الطفل الذى تحبُّه ويحبّها من بين أحضانها ، ثم اختفى فى الظلام ولم يعد . .

فصرختُ :

— كلا ! لا تأخُذنى . . . !

وأنير المكان ورأيت عمّى يسير نحونا بقامته المديدة ، وخُطواته المتثاقلة عبوسَ الوجه يصوّب إلينا نظراته الحادّة وسمعتهُ يقول :

— مامعنى هذا ... ؟

وانتزعنى من السيدة وأطبق يده على يدى بشدَّة ، وقال لها :

— كيف سوغت لك نفسك أن تستولى على أبناءِ الناس..؟ أنسيت من أنت ومن نحن ؟

ورأيت السيدة تقف بجوار الباب وتُسْندُ يدها عليه . وكانت تبدو عليها سمات النبل والترفع ، وقد استطاعت فى لحظات قصيرة أن تضبط عواطفها وتعيدُ الهدوءَ إلى ملامحها ، ثم قالت له فى صوت شبه طبيعىّ :

—كلا ياسيدى لم أنس ولن أنسى من أنا ومن أنتم ... وإذا كانت الأخبار قد ترامت إليك ماهو مخز لى ومزر بى فصدّقها ، ولكن هناك شيء واحد أريد أن أوضحه لك فى شأن هـــذا الغلام .

فرنّ صوت عمى ، قائلا :

— عجيب أمركِ مع هذا الغلام ؟ !

— خفف من حدّتك ياسيدى ، فليس أمامنا الآن مايثير الغضب الى هذا الحدّ ، إن الغلام غُـلامكم وليس لى فيه أىّ حق .

— حقّ ، هذا ماكان ينقصُنا !

فابتسمت السيدة ابتسامة هادئة ، وقالت فى صـــوت خافض :

— ألا يمكننا أن نتفهّم الأمر ، تفضّل بالجلوس بضعَ دقائق ، ولا أطالبك أن تُطيل .

فقال عمى :

— أفضّل الوقوف ، تكلّمى من فضلك وأوجزى !... !

فخلعت السيدةُ حِلْيةً دقيقةَ الصّنع تشبه الساعة الصغيرة ، وكانت مدلاّة على صدرها تَصِلها برقبتها سلسلة ذهبية ثم فتحتها وقدّمتها إليه وهى تقول :

— انظر فى هذه الصورة !

فتناول عمّى الحلية ونظر فيها ثم قال :

— واصف ! صور واصف ؟

ورفع بصره إليها مستوضحا ، فقالت وهى ماتزال تبتسم ابتسامتها الساكنة : كلا ياسيدى ، ليس واصفا ، دقّق النظر فى الصورة مرة أخرى . هنالك اختلاف صغير لا يصح أن يغيب عنك ..

— إذن ؟ !

— هذه الصور لم تفارق صدرى منذ فقدته ! لن أنسى ما حييت ليلته الأخيرة معى ، تلك الليلةَ التى قضاها فى أحضانى ينظر إلىّ بعينينْ ولا يملك أن يتكلّم ، لقد مدّ الموت إليه يده الظالمة فانتزعه من صدرى بلا رحمة . . . وشَعَرْتُ بيد عمى تضطرب وهىَ ممسكةٌ بيدى ، ورأيته يَسْعُلُ سَعْلته المفتعلة ومضت السيدة فى قولها :

لقد أصبح فقده جرحا عميقاً فى فؤادى تثور علىّ ثائرته بين حين وحين . . . آه ! كم كنت سعيدة به . . . ؟ كم كنت فخوراً به . . . !

ورأيت عمى يتحرك ليعتدل فى وِقفتِهِ ، ولكنه ظلَّ صامتاً

يستمع بانتباه ، وتابعت السيدة قولها :

وعند ماحضرت إلى حلوان لقضاء فصل الشتاء ساقت المقادير الىَّ «واصفاً» فكأنما بعث ابنى إلى الحياة، رأيته يعود إلى بعد طول اغتراب .

وسكتت ، وقد أخفت وجهها فى المنديل ، وبعد حين همهمت قائلة : والآن ياسيدى ليس عندى ماأقوله بعد هذا .،

ووقف عمى يدير بعينيه أمامه فى حيرة واضطراب ، ولكنه لم يرفع بصره إليها ، ظل كذلك وقتاً يحاول الكلام فلا يستطيع ثم استدار على نفسه وخرج . . .

محمود تيمور

موعد

كان اليوم يوم الجمعة والوقت منتصف الحادية عشرة صباحا حين جلس « توفيق بك سعودى » يدخن ويرتشف القهوة على مهل وهو فى الفترة بعد الفترة ينقل نظره فى جريدة مبسوطة بين يديه ، إذ يستمتع بالراحة بعد أسبوع شاق قضاه يعمل فى وزارة المالية . وعن كثب منه جلست زوجه « بهيجة هانم » منكبة على آلة الحياكة تخيط ثوباً لها .

ورفعت الزوجة بصرها تقول لزوجها :

— نسيت أن أخبرك بأن « سامى » قدم بعد خروجك أمس فدخل حجرة ملابسك وانتقى من بين أربطة الرقبة رباطاً راقه !

فقهقه « توفيق بك » وهو يقول :

— لعل ما راقه هو الرباط الأزرق ذو النقط الحمر .

— هو بعينه . . .

— كنت أقدر ذلك فقد اشتريته من أيام قليلة ولم أستعمله بعد .

ووضع « توفيق بك » رجلا على رجل وأتم قوله :

— ثم ماذا ؟

— لقد عرفت أمر الخف ؟

— رأيته فى قدمه . . .

وجعل « توفيق بك » يهز ساقه عابثاً ثم قال :

— ممن يأخذ إذا لم يأخذ منى . . .

فتطلق وجه الزوجة بابتسامة نيرة ، وعادت إلى ثوبها تحوكه وأقبل « توفيق بك » على الجريدة يقرأ ، ولكنه ما عتم أن ألقاها جانباً وهو يغمغم :

— لا شىء إلا أنباء الحرب والغارات . . كأنما خلت الدنيا مما يستحق أن يروى . . وولاة الأمور لا يعنون بغير ذلك من الشئون . أما حالة الموظفين والنظر فى إنصافهم ومنحهم من الدرجات مايستحقون فذلك ما لا يتطلب منهم أقل العناية والاهتمام .

فأجابته زوجه وهى تدير آلة الحياكة وتتبع بنظرها حركة الإبرة :

— ومذكرتك التى تطلب بها الترقية .. ماذا تم فيها ؟ .

— لقد أعددتها ولكن يجب أولا أن ...

وسمع « التليفون » يدق فقال « توفيق بك » على الأثر :

— أكبر ظنى أنه « محفوظ بك » لقد وعدنى أن يكلمنى اليوم فى شأن هذه المذكرة .

— أسرع إذن ! .

وكان « التليفون » فى ركن بعيد من الردهة فنهض إليه « توفيق بك » وظلت زوجه على حالها منصرفة إلى ثوبها تخيطه.

وجذب « توفيق بك » السماعة وهو يقول :

— ألو !

فإذا بصوت حلو النغمة لين النبرة يجيب .

— ألو .. من المتكلم ؟ !

فأجاب فى تحفظ :

— هنا منزل « توفيق بك سعودى » ..

فقال الصوت الناعم :

— أموجود « سامى بك سعودى » ؟

فأجاب « توفيق بك » فى لهجة حازمة :

— وماذا تريدين من « سامى بك سعودى » ؟

— أريد أن أعلم أولا : أموجود هو أم غير موجود ؟

فقال « سعودى بك » فى عنف ؛

— غير موجود ! . .

فتلطف الصوت الناعم وقال :

— لا بد أنك عيسى الفراش . . لا تحتد ياعيسى أرجومنك أن تخبر سيدك « سامى بك » أن موعدنا اليوم سيكون تجاه دار البريد فى السادسة مساء . لاتنس . سعيدة ياعيسى .

وهم « توفيق بك » أن يقاطع المتكلمة فخانه صوته فرمى السماعة مكانها وهو يهدر :

— وقاحة . . . قلة أدب . . .

ثم عقد يديه خلف ظهره وانطلق يصيح :

— ياعيسى . . . ياولد ياعيسى . . أين أنت يا كلب ؟ . .

فسمع زوجه تقول :

— عيسى اليوم مريض وهو فى بيته معتكف .

فدمدم « توفيق بك » :

— فليذهب فى داهية . .

وانبعث يصيح ثانياً :

— ياسامى . . ياولد ياسامى . .

فقالت زوجه وعيناها موصولتان بإبرة الحياكة :

— إن سامى مع أستاذ الرياضة فى حجرة الدرس . .

فلم يأبه لقولها واستأنف صياحه ينادى :

— ياسامى . . ياولد ياسامى . .

فرفعت بهيجة هانم رأسها عن آلة الحياكة وقالت :

— اتركه برهة يتم درسه فى هدوء . إن الامتحان قريب . . .

— امتحان . . هه . . !

وطفق يذرع الردهة ويداه معقودتان خلف ظهره وهو يغمغم بالألفاظ يمضغها مضغاً فسألته زوجه :

— مابك ؟ أحدثك « محفوظ بك » بشىء جديد فى شأن المذكرة ؟ .

— المذكرة . . المذكرة . . نعم . . نعم . .

ومافتىء يذرع الردهة بالخطا القلقة ومضت « بهيجة هانم » تستكمل عملها فى حياكة الثوب وقد فطنت إلى أن أمراً جد فى شأن المذكرة عكر على زوجها صفوه . فحرصت على تجنب الحديث فترة حتى تسكن الثائرة .

ولبث « توفيق بك » يتابع سيره ذهابا وجيئة وسمعته زوجه يجمجم :

— أطفال لم يخرجوا بعد من البيضة تصدر منهم هذه الأعمال!

— من تعنى ؟ !

— ابنك « سامى ».. وهل أعنى غيره.. ابنك الذى حذرتك مراراً وتكرارا من تدليله فلم تصغى إلى قولى ؟

— ماذا جرى ؟

— لاشىء.. لاشىء.. « سامى » آية فى الأدب والكمال؟

وما زال يسير وقد وضع يديه فى جيب معطفه المنزلى. وماهى إلا أن رجع إليها ووقف أمامها يقول :

— أنت التى أفسدته.. مازلت تغمرينـــه بآيات المدح والإعجاب ولا تنفكين ترددين على أذنيه أنه جميل خفيف الروح غاية فى الجاذبية حتى حسب نفسه « دون جوان » آسر القلوب !...

— ماهذا يا « توفيق »؟

— ألم تلاحظى عليه أنه أصبح الآن يعنى بزينته أكثر من عنايته بدرسه ؟ لقد صار مكتبه أشبه شىء بمعرض شائق للعطور والأدهان..

— أنه شاب وسنه تتطلب ذلك..

— لعلك تزعمين أيضاً أن سنة تلزمنا بأن نبحث له عن.. خليلات.

— أنت بلا ريب تهذى !..

فتحول عنها وخطا قليلا ثم قفل إليها يقول :

— قلت لك لقد سممت عقله بهذا المديح !..

فابتسمت الزوج وقالت :

— ألا تعتز الأم بجمال ابنها.. أليس سامى جميلا ياتوفيق؟ ولكنى أعترف لك أنه لم يبلغ مبلغ أبيه فى الوسامة مع أن قوامكما واحد.. وعيونكما متماثلة.. وهذا الأنف نسخة أصيلة منك ياتوفيق تكادان تكونان توأمين !

وانثنى عنها « توفيق بك » وترفق فى سيره بيد أنه لم يعقد يديه فى هذه المرة خلف ظهره ولم يضعهما فى جيب معطفه بل رفعهما فى سكينة وتؤدة إلى شاربه وأخذ يفتله فى عناية، وعرج على مرآة قائمة فى الحائط وراح يتراءى فيها ثم انعطف يمشى فى الردهة لاينبس ، وعن له أن يقصد حجرة « سامى » نخف إليها وامتدت يداه تعبثان بأوراقه وأشيائه وعثر فيما عثر على بضعة أعداد من مجلات أسبوعية فاعتدل يتصفحها على عجل فاسترعت بصره صور لبعض غانيات يعملن فى المسارح و المراقص وقد جلتهن الصور فى أوضاع خلابة فانهمك يتفرج . ورأى فى عقيب إحدى الصور علامة مرقومة بالقلم الأحمر فأطال نظرته إليها ، وأسرع إلى ذهنه حديث « التليفون » وذلك الصوت الناعم

الرقيق فلمعت عيناه واندفع ينقر حافة النافذة ثم غمغم قائلا :

— سأفاجئه بصورتها وسيفتضح أمره !

واقتطع الصحيفة من المجلة ودسها فى جيبه ثم غادر مكانه وتوجه نحو الباب فعلق بصره بصورة ابنه على خوان الزينة محوطة بقوارير العطر والأدهان فمثل قبالتها وقتاً وجعل يتفحصها ثم رفع حاجبه الأيمن ومط شفته السفلى فى استهزاء وترك الحجرة وهو يتضاحك .

وما أن بصرت عينا زوجه به حتى بادرته قائلة :

— ومذكرتك ماذا قال فى شأنها محفوظ بك ؟

— مذكرتى ! . . قال لى إنه عرض الأمر على الوزير ولكنى لم أعلم على وجه التحقيق ماذا تم حتى الآن . .

واتجه إلى الشرفة وأسند يديه إلى حافتها وسرح ببصره فى أجواز الفضاء ثم أخرج صحيفة المجلة وجعل يتأمل فيها وأسرع يطويها ثم أشعل لفافة من التبغ ولبث يتفرس فى دخانها . . ورجع إلى الردهة بخطى بطيئة وجلس على المتكأ وقد بسط الجريدة أمامه وظل وقتاً ينقل نظره فيها دون أن يقرأ حرفاً وسرعان ماصاح دفعة واحدة :

— أف لصوت هذه الحائكة ما أنكرها ؟ !

فرفعت «بهيجة هانم» بصرها إليه تتعجب بيد أنها لم تنبس،

كان هذا أول اعتراض سمعته منه فى شأن هذه الحائكة وما هى إلا أن إستأنفت حياكتها فغمغم « توفيق بك » فى حدة :

— الراحة مفقودة فى هذا المنزل ..

وألقى الجريدة من يده ونهض يقصد حجرته وما كاد يخطو إليها خطوتين حتى دق جرس التليفون فصاح توفيق

— ألا نستريح لحظة من هذا التليفون وتقدم نحوه وأمسك بالسماعة فإذا بالمتكلم صديقه فهمى فقال له :

— خير ياسيد فهمى .

— ألا تحضر اليوم إلى القهوة .

— لاأدرى على وجه التحديد .

— ولماذا لاتحضر ؟ نريد أن نتم بارتيتة الضمنة التى بدأناها أمس .

— لقد ضقت ذرعا بالضمنة ، وفقدت الرغبة فى لعبها .

— فلنلعب إذن النرد .

— لعبة الشيوخ المتقعدين من أرباب المعاشات. إن صوت حجارتها وهى تقعقع فى تلك الضجة المتلاحقة تورثنى صداعا . ألا تنظر لنا فى شىء آخر غير الجلوس فى القهوة . . ألا تشعر بالملل من ترددك كل يوم على محل واحد . . دائما القهوة يا أخى .

— عجيب أمرك ياتوفيق

— تعلم بنج بنج يا أخى ، أو تنس ، اخرج مرة إلى الجزيرة وشاهد السباق . . ووضع السماعة فى غيظ ، وعاد إلى البهو حيث زوجه ، فما إن رأته حتى قالت :

— أهو محفوظ بك الذى كان يكلمك .

— كلا بل فهمى .

— فهمى بطل الضمنة ، لابد أنه دعاك للعب .

— فرفضت

واقتعد مقعدا غير بعيد عن زوجه . وماعتم أن تململ فى جلسته وهو يتلفت حوله :

— إن وضع هذا المقعد فى هذا المكان لايتناسب ونظام الحجرة .

— كيف ذلك . ألم تلاحظ ذلك إلا الساعة وهو موجود هنا طول عمره .

— قلت لك إن وضعه خطأ .

وطفق يدور بعينه حوله وهو يقول :

— يجب أن ننظم أثاث البهو على نحو آخر ، بل يجب أن نستبدل ببعض الأثاث غيره .

— إنى مرتاحة إلى هذا النظام . ولا يمكننى أن أفرط فى شىء من أثاثى . . .

— أراك أنت وفهمى على شاكلة واحدة .

— أترانى بطلة فى لعب الضمنة .

— بل بطلة فى التشبث بالقديم وعدم الميل إلى التجدد . . . هـذا أمر مضايق حقاً . . . وقام على الفور إلى حجرته وطرح جسمه على المتكأ وأخذ يزفز وهو يروّح وجهه بمنديله . ولم تطل جلسته على هذا الحال حتى قدم عليه ابنه سامى ، وقال :

— هل طلبتنى ياأبى ؟

— نعم طلبتك . . . أهلا وسهلا ! . .

وزايل توفيق مقعده واشتبكت يداه خلف ظهره وعاد سائراً فى الحجرة يغدو ويروح ثم مثل أمام ابنه وقال له وقد زوى مابين عينيه :

— إلى متى إستهانتك بحق أبيك ؟

فدهش الفتى وتساءل :

— أى إستهانة باأبى ؟

— خفى من قبـل ورباط رقبتى أمس . . . إنك لتبيح لنفسك ماأعده افتئاتا على ما يجب لى من احترام .

— الحق ياوالدى أنه لم يكن لدى رباط على لون كسوتى الجديدة . وقد استأذنت والدتى فى استعارة هذا الرباط الملائم فأذنت لى ..

— أذنت لك .. تعنى أن لوالدتك حق التصرف فى ملابسى كما تشاء ..

— لم أقل ذلك .. ولكننى أقصد ..

— آه .. لا .. لا .. لقد بلغ الأمر حداً لا يطاق ..

— سأعيد إليك الرباط من فورى .

— بعد أن استعملته .. شكراً .. وما شأن هذه الكسوة الجديدة .. لم أعلم بها من قبل .

— لقد نقلت إليك نبأها ..

— لعلها الكسوة الخامسة أو السادسة التى تستحدثها هذا العام على حين أقصر أنا على واحدة أو اثنتين ..

— إننى لا أستحدث كسوة إلا بأمرك .

— بأمرى أو بغير أمرى .. لقد أصبحت الآن لا تعنى إلا بملبسك وزينتك .. تحسب نفسك أبهى الشبان رداء وأرشقهم قواماً وأجملهم شكلا .. يجب أن تخلى رأسك من هذه الأفكار ..

— ماهذا ياوالدى .. إننى ..

— يجب أن تهتم بدروسك . بدروسك وحدها. وأن تعدل من سيرك وتقوم من سلوكك . أفاتك أن الامتحان قريب ؟

— إننى لاأغفل عن الدروس ياأبى .

— هذه نصيحتى إليك وما أبغى إلا نفعك .

وضرب يده فى جيب معطفه المنزلى غير عامد فلمست أنامله ورقة المجلة فأمسك بها وأبقاها فى مكانها . ومشى يذرع الحجرة بخطوات قلقة وقال :

— إن والدتك قد أفعمت رأسك بألوان زاهية من المديح والإطراء فركبك الغرور وخيلت لك نفسك أنك « دون جوان العصر »

وتضاحك وهو يردد :

— ولكن أى « دون جوان » هذا ؟ .. دون جوان لا يساوى بصله ! . وربت كتف ابنه فى مداعبة ساخرة وقال له :

— لا يغضبنك كلامى : إننى لا أعنيك وحدك بل أعنى هذه الطائفة المتطرفة من شبان اليوم . هذه الطائفة التى إن وازنت بينها وبين طائفتنا كما كنا فى مثل أعماركم ظهر لك البون شاسعاً . ومع ذلك فلم تذهب بعيداً .. تأمل قامتك المقوسة ووجهك المعروق ثم أرجع بصرك إلى قامتى المنتصبة ووجهى الريان ، لقد أفسدكم التخنث على حين رفعتنا الرجولة الحق إلى المكانة التى نستحقها .. ذاكر دروسك .. إن الامتحان قريب !

✲ ✲ ✲

وضمت مائدة الغداء الأب والزوج والولد وكان « توفيق بك » صموتاً موزع الفكر وحضر الطعام فأكل الثلاثة فى جو يسوده السكوت المطوى على قلق وحيرة ..

وزفر « توفيق بك » مدمدماً :

— كل يوم « قورمة » .. أليس فى الدنيا غير « القورمة » ؟

فقالت زوجه وهى تنظر إليه متعجبة :

— إنه اللون الذى تستطيبه وتفضله على غيره من الألوان .

— ولهذا السبب تقدمينه إلى كل يوم . إن أشهى الألوان وألذها إذا قدم إلى كل يوم كان جديراً أن يعاف ويكره ! ..

— ولكننا لم نطبخ « القورمة » منذ عشرة أيام ..

— تعنين أننى كاذب فى دعواى .. ألا يحق لى أن أنتقد الطعام الذى آكله .. تريدين أن ترغبينى على أكل مالا اشتهى .

— إنك ثائر الأعصاب اليوم يا توفيق ولا يمكننى أن أبادلك الحديث ..

فصاح على الأثر :

— إن كلامك هذا هو الذى يثير الأعصاب .

— إذن سألزم الصمت ، إن كان هذا يروقك .

— لن تسمعينى ألفظ كلمة واحدة . استريحى ..

* * *

فى الساعة الخامسة « توفيق بك» يرتدى ملابسه فإذا به ينتق أبهى ماعنده وكان يختلس النظر إلى ساعته الفينة بعد الفينة وأحكم فتل شاربه وتضميخ شعره بالعطور والأدهان .

ودخلت عليه زوجه تقول :

— إنك بلا ريب تعد نفسك «للسينما» سنذهب معا على حسب الاتفاق .

فقال لها وهو مهتم بعقد رباط الرقبة :

— ولكن يابهيجة لدى موعد مع محفوظ بك فى شأن المذكرة . .

— المذكرة . . ماهذا القول ؟ !

فربت خدها مداعباً وقال :

— لاتستائى ياعزيزتى . . إنه موعد مهم جداً . . أما السينما فيمكن أن يصحبك فيها سامى . .

فغمغمت بهيجة هانم :

— سامى . . لقد أخبرنى بأنه سيذاكر دروسه مع صديقه فتحى . .

— فوقف توفيق بك وقفة اعتراض وقال :

— درس فى الصباح . . . ودرس فى المساء . أنسيت أن اليوم يوم الجمعة . . يوم الراحة والاستجمام . إن الولد يقتل

نفسه بهذا العمل المضنى !

وأصدر توفيق بك أمره إلى ابنه بأن يلغى مذاكراته مع صديقه فتحى ويصحب أمه إلى السينما لأنه شديد الحاجة إلى رياضة ذهنية تريحه من كد المذاكرة !

* * *

وغادر « توفيق بك » المنزل بعد أن رشق وردة حمراء فى عروة سترته وسار فى خطا المتظرف الرشيق ووجهته دار البريد.

ابراهيم المصري

نداء البحر

لم يكن الدكتور محمود ، بالرغم من أنه تلقى علومه فى انجلترا شابا متطرفا فى نزعاته العصرية ، بل كان على النقيض يكره التطرف ويميل إلى الاعتدال ويحرص على جوهر روحه الشرقية ويهوى الحياة الأوربية فى نفس الوقت ويشعر أن سلطانها قوى على عقله وقلبه .

كان يغشى الملاهى العامة ، ويرتاد المراقص والمسارح ودور السينما ، ويتعشق الأدب الغربى الرفيع ، ويؤثر سماع الموسيقى الأوربية ، وينادى بحرية الفكر ، وحرية المرأة . وكان فى الوقت نفسه يؤدى فروضه الدينية على أتم وجه وأكمله ، فيصلى ويصوم رمضان وينشد حج البيت الحرام ، ويعالج الفقراء من مرضاه بالمجان ، ولا يكف فى أوقات فراغه عن مطالعة السيرة النبوية يلتمس فيها متعة لذهنه وحافزاً لإرادته .

وكان شاباً مديد القامة ، مفتول العضل ، موفور الصحة ، تقترن فى أخلاقه الدماثة بالصرامة ، والحزم باللين ، ومرح الشباب الناضر القوى بفتنة العقل الراجح الحكيم .

ولقد أحبته ابنة عمه سعاد ، لا لشبابه ، ولا لقوته ، ولا للنجاح الرائع الذى أصابه فى مهنته . ولا للسحر المنبعث من لونه الخمرى الجذاب ، ومن عينيه السوداوين المتقدتين اللتين تأسر النظرة منهما لب كل فتاة .

لا ريب أن سعاد قد أعجبت كغيرها بهذا الحسن الفياض بالرجولة ، ولكن ما هز فؤادها ، وملك عليها مشاعرها ، وأخضعها لحب محمود ، هو شذوذ أخلاقه ، هو غرابة أطواره ، هو تفرده بالجمع بين حب الحياة وحب التأمل ، بين النزعة الحديثة والنزعة القديمة ، بين الإقبال على اللهو البرىء والإقبال على الصوم والصلاة .

وكانت سعاد نفسها فتاة تقية ورعة ، نشأت فى بيت محافظ من أب كان موظفاً كبيراً فى وزارة الأوقاف ، وأم كانت شديدة الحرص على العقائد والتقاليد .

على أن هذه البيئة جعلت من سعاد شخصية تختلف كل الاختلاف عن شخصية محمود . والحق أن سعاد كانت تشبه أمها شبها عجيبا . كانت تخشى الرجال ، وتكره السفور ، وتنفر

من المجتمعات ، وتؤثر حياة البيت ، وترتبك فى حضرة الشبان ويحمر وجهها وتتولاها رعدة وسرعان ما تلوذ بالفرار .

وليس شك فى أن محمودا قد أحبها لبراءتها ولهذا الخفر الشرقى الساحر الماثل فى كل حركة من حركاتها . ومع ذلك فقد كان يضجر منها فى بعض الأحيان . كان يود لو تكون أقل خوفا وأكثر شجاعة وأقدر على التبسط فى الحديث والظهور أمام الناس . ولكنها كانت تعيش منطوية على نفسها ، فرحة بحبها ، سعيدة بإخلاصه لها ، تحلم بالزواج ، والبيت المستقل ، والأمومة الهانئة المباركة .

ولطالما اجتهد محمود فى إنعاش أعصابها ، وإطلاقها من جو خمولها ، ورياضتها على الحرية والحياة . ولكنها كانت تضطرب وتتملص وتؤثر الوحدة ولا ترافقه بعد جهد إلا إلى السينما ، ولا تعود من السينما إلى البيت إلا وهى مذهولة مما رأت ، ساخطة على ما شاهدت ، تستنكر الأفلام وحوادثها ، وترى فى مظاهرات الحب والغرام دليل تبذل وتهتك وقحة وفجور .

وهكذا كانت سعاد تكتفى بنفسها ، وتكتفى بحبها ، وتعيش فى الجو الضيق الخانق الذى عاش فيه أهلها . أما محمود فكان يميل إلى هذا الجو بقلبه وينفر منه بعقله ، وكان يتمنى لو استطاع فى سبيل سعاد أن يتخلص من مؤثرات ثقافته ، ويندمج عقلا

وإحساسا فى الحياة الفاترة التى تحياها خطيبته . غير أن ملذات الحرية ومفاتن الثقافة ، ومباهج الحضارة ، كانت مستحوذة عليه كما كانت الميول الدينية الروحية متمكنة من نفسه .

وظل محمود يرتاض سعاد على الشجاعة والجرأة وخلطة الناس والظهور فى المجتمعات والاتصال بالرجال ، وهى ترضى ثم تتمنع ، تقبل ثم تعرض ، تتقدم ثم تتراجع ، حتى أعياه أمرها وأحس عجزه عن صقلها وتهذيبها وأدرك أنها لن تفهم أن فى وسعها أن تكون جريئة ومحتشمة ، حرة وفاضلة ، فكف عن لومها ، وعدل عن مراجعتها ، وقنع بأن يحبها كما هى . وفى نفسه منها حسرة عميقة يمازجها الغيظ والحنق .

***

أقبل فصل الصيف . وارتأت أسرة سعاد أن تبرح القاهرة إلى رأس البر . ولكن محموداً فضل الاسكندرية . فأعربت سعاد عن رغبتها فى مرافقة خطيبها ، فأذن لها والدها بعد أن استوثق من أن أسرة محمود ستنتقل إلى الثغر أيضاً وأن ابنته ستكون فى كنف شقيقه وفى رعاية زوجة أخيه .

وكانت الشواطىء فى ذلك الصيف غاصة بالمصطافين من مصريين وأجانب ، ينبسط أمامها البحر ويجيش ويهلل كأنه كان فى انتظار أحبابه ، فترد عليه الشواطىء صاخبة هادرة كأنما هى

تحييه شـاكرة له ما أيقظه فيها من حمى الحركة وجنون الفرح بالحياة .

وكانت المقاهى المتراصة على الشـواطىء زاخرة بالناس ، بعضهم بملابس الاستحمام يقطر منها الماء ، والبعض يتسامرون ويترشفون القهوة أو المرطبات أو يأكلون والشاطىء على مرمى النظر منهم يعج بالمستحمين والمستحمات من شبان وفتيات وأولاد وبنات ، أنصاف عرايا ، ينطلقون واثبين إلى البحر ، أو يكرون منه لاهثين مبللين حيث يتفيأون ظل شمسياتهم الملونة أو ينبطحون على الأرض مبتهجين وقد أنهكهم التعب ولوحت أبدانهم حرارة الشمس أو يتجاذبون أطراف الحديث وهم يتخطرون على الرمال فى هدأة الحلم وفى بطء النشوة الكبرى ، نشوة الإحساس باللانهاية تتصاعد إلى نفوسهم من إعماق البحر .

ولم يكن فى مقدور الناظر إلى البحر إلا أن يتمثله بستاناً ، متألق الخضرة ، فسيح الأرجاء . تتلألأ عليه الحسان المستحمات أشبه بزهرات كبيرة عصفت بها الريح فتماوجت فى رقص مشوش مدهش بديع .

وكانت سعاد جالسة بين عمها وزوجته وبعض الأقارب فى زاوية أحد المقاهى المشرفة على البحر .

وكانت شاحبة الوجه ، مكفهرة التقاطيع ، صامتة ، جامدة .

ينسكب عليها فستان أزرق اللون ، صارم المظهر ، متجهم الرواء يحللها ويخنق جمالها ويحجب تقاطيع بدنها عن الأبصار .

وجعلت تحدق إلى البحر وهى تتنهد وتعض شفتيها .

ولأول مرة خامرها إحساس عجيب .

شعرت حيال هذه البهجة الشاملة ، حيال الفرح العظيم ، حيال الفتيات أترابها يمرحن فى أثواب الاستحمام ويتساقطن إلى البحر ضاحكات مغتبطات ، أنها مخلوق منكمش مخذول جبان ، وأنها فتاة منبوذة تنتسب إلى عالم قديم ، وأنها لم تتعلم كيف تعيش ، وأنها لاتستحق أن تكون هنا ، وأنها لو فقدت فى غضون هذه الرحلة خطيبها فلن يكون الذنب ذنبه بل ذنبها هى .

لقد دعاها إلى الحياة فرفضت . أغراها بنزول البحر فى صحبته فاستنكرت . حاول أن يجعل منها فتاة عصرية نشطة جسوراً ـ فارتاعت وتمنعت . توسل إليها أن تطاوعه وتجرب فأبت . ولما ألح عليها غضبت منه وتبرمت به وتشبثت بالبقاء مع زوجة عمها .

ولم يكن محمود قد قصد الشواطىء إلا ليحاول أن ينعم بلذة الأستحمام واللهو فى رفقة خطيبته ، فلما أبصرها مصرة على عنادها ، جامدة نافرة متحفظة ، تضرب حول نفسها ومن

معها رواقا من الكآبة والجهامة يفسد الرحلة ويكرب النفس ويستفز الضجر ، انصرف عنها وانخرط فى زمرة جمعت نفراً من أصدقائه اتفق أن كان بينهم شاباً أجنبيا له شقيقة حسناء، شقراء الشعر ، ناصعة البياض ، غلامية القد ، هوجاء ، لعوبا . تنساب على الرمال كأفعى وتقتحم البحر غير هيابة وتسبح فيه كشيطان.

افتتن محمود بها ، راعته منها خفتها وجرأتها . وجد فيها كل ماينقص سعاد ، وكل ما تمنى لو استطاع أن يخلعه على سعاد . فتعرف إليها ، واتصل بها ، وجعل يفرج عن نفسه باللهو معها كأنما كان يأبى إلا أن يربح من رحلته ويستمتع بلذة الاصطياف ولو كرهت سعاد . . .

ولقد عرفت الأجنبية كيف تجتذبه . . عرفت كيف تغويه . . عرفت كيف تستأثر بفكره ووقته . . أيكون قد بدأ حقاً يحبها ؟ أيمكن أن يحب محمود مثل هذه المخلوقة المتهتكة الغادرة ؟ إنه لا يكاد يفارقها .. إنه يتبعها كظلها . إنهما يستحمان معاً .. يستلقيان على الرمال معاً .. يتباريان فى السباحة .. يتقاذفان حفنات الماء .. يتبادلان نفس الضحكة المعنوية البغيضة الماكرة . وهاهما . . هاهما الآن يتقلبان فى حضن البحر .. يثيران الموج حولهما ليصرعانه . . يشقان طريقهما إلى الشاطىء ! إن شعرها الذهبى ليتوهج تحت أشعة الشمس . لقد خرجت من جوف الماء كالدرة

الساطعة تنهبها العيون . وهاهوذا محمود ينطلق ، ينطلق فى إثرها كالسهم مشعث الشعر يقطر منه الماء وهى تخالسه النظر وتنفض أعضاءها وتضحك .

لم يلتفت .. لم ينظر إلى هنا . . تبع الفتاة وتغلغل بها فى وسط الجماهير . فأحست سعاد موجة من الدم تندفق إلى وجهها وكأن ناراً تنهش صدرها ، فحولت أبصارها نحو عمها وزوجته فألفتهما يتحدثان فى هدوء غير مكترثين لشيء ، فثارت أعصابها، واشتد سخطها ، وضاقت ذرعاً بنفسها . ولم تطق المكوث لحظة أخرى فنهضت ثم ظلت برهة واقفة لاتدرى لماذا نهضت . ملكتها الحيرة ، استحوذ عليها اليأس ،أذلها العجز والفشل ، فلبثت واقفة تتأمل الأرض وتفكر .

وفجأة وفى مثل لمع البرق فغرت فاها كبلهاء ، ثم أومض محياها واتقد بصرها ، ثم لاحت على شفتيها ابتسامة غريبة ، فانحنت على عمها وقالت وهى تصطنع الضجر وتجتهد فى إخفاء عواطفها.

— لقد تضايقت . أريد أن أذهب إلى شاطىء كليوبترة .

فربت عمها بيده على ذراعيهاوقال :

— اذهبي يابنيتي وعودى بسرعة .

وأردفت زوجة عمها وهى تقشر اللب وتأكل :

— وسلمى لى على نجية هانم وقبلى أولادها .

فهزت سعاد رأسها واستدارت ، ثم تولتها رعدة فجعلت تعدو وقد بدأت تحس على دهش منها أن الأرض أصبحت وطيدة تحت أقدامها

* * *

انقضت بضعة أيام لاحظ فيها محمود أن هناك شيئاً من التبدل قد طرأ على تصرفات سعاد ، وأنها لم تعد تطيل الجلوس فى صحبة والديه على المقهى ، وأنها تكثر من التغيب ، وأنها أصبحت أميل إلى الحركة والنشاط والانطلاق .

وكان كلما استفسر عنها أجابوه أنها فى شاطىء كليوبتره عند صديقتهم نجية هانم حرم درويش بك . فقام بذهن محمود أن سعاد تسلك حياله مسلك جميع النساء ، وأنها لا تصد عنه وتعرض وتتدلل إلا لكى تهتاجه وتستثير كرامته فيسعى إليها وينزل على إرادتها طائعاً مختاراً .

ولكنه كان رجلا شديد الكبرياء ، شرقى الأحساس بقيمة رجولته . فلم يسع إليها ، ولم يسألها مرة أين كانت ، بل كان يبتسم كلما رآها بعدغيبة طويلة مقبلة على الشاطىء برفقة روجيه كريمة درويش بك .

ومع ذلك فالهواجس كانت تراود فى بعض الأحيان نفسه ،

والشكوك والريب تطوف بذهنه وتقلقه . غير أنه كان يطردها ساخرا ثم يمضى فى خلطة أصدقائه مبالغا فى التقرب إلى الأجنبية الشقراء يتعمد أن يغازلها وأن يهبط البحر معها ، بمسمع من سعاد وعلى مشهد منها .

وانقضت بضعة أيام أخر وسعاد معرضة عن محمود ، ومحمود يكايدها ، والجو بينهما كثيف ملبد لا يلطفه ابتسام ، ولا يبدد غيومه حديث .

وكبر على محمود أن تتحداه سعاد على هذه الصورة وتثبت فى مقاومته ولا تكون البادئة بالإقبال عليه ، فتجهم لها وشاعت هذه الجهامة فى أخلاقه ، وزادها حدة عدم اكتراث الفتاة له .

وظلت تلك حالهما حتى دنت الساعة ووقع مالم يكن فى الحسبان .

وكان ذلك فى صباح يوم وضاء السماء ، ندى الهواء ، حلو المجتلى ، وكان محمود يستحم فى البحر مع أصدقائه غير حافل بتغيب سعاد ، وإنه ليسبح على ظهر الماء ويفرق العباب بذراعيه القويتين محاولا اللحاق بالأجنبية الشقراء التى كانت تسابقه فى العدو وتروغ منه كالسمكة فى أطواء اليم ، وإذا به يرفع رأسه اتفاقا ويرمق الشاطىء بنظرة ويتئد بالرغم منه وتفتر عضلاته ويعتريه شبه دوار .

أبصر منظراً لم يكن ليتوقعه أبداً.

أبصر سعاد .. سعاد بعينها .. سعاد الخاملة الهامدة .. فى رهط غريب من المستحمين شباناً وفتيات، تضحك وتقهقه، وتتقدم بهم إلى البحر، وهى فى قميص أحمر صارخ، مكشوفة الصدر والذراعين، نصف عارية. تمتد قامتها الدنة كالغصن وتبرز تقاطيعها فى انسجام لين، وتبرق بشرتها السمراء كما يبرق طمى النيل تحت أشعة الشمس.

وهللت، ثم صفقت، ثم رفعت ذراعيها ثم القت بنفسها فى البحر، وجعلت تسبح فى رفق وحذر، وأصدقاؤها من خلفها، يقتحمون الماء، وهى تتلفت إليهم. وتنادى منهم شاباً جميلا لا يعرفه محمود، وتتمهل ما استطاعت لتجاوره وتسبح معه.

وأحس محمود شيئاً يطغى عليه ويشل عضلاته ويكاد يخنقه، فلم يعد يفكر فى مطاردة غادته الشقراء، واستجمع قواه، وكر راجعاً فى اتجاه الشاطىء.

ولما أشرف على البحر، وأجال فيه بصره أخذت عيناه سعاد وهى تغطس وتطفو، والماء يصطفق حولها، وذراعاها تضربانه والشاب الجميل يتبعها، وهيكله الوثاب يكاد يحضنها، فامتقع وجهه، وأظلم البحر فى عينيه، ولم يستطع إعجابه الخفى بسعاد أن يخفف عنه إحساس الضيق والسخط والألم

وتراجع مطرق الرأس مهموماً وقد تنثرت كبرياؤه وعضت الغيرة قلبه ، ثم صعد إلى المقهى ، واتجه صوب والديه ، وارتمى على مقعد كاسف البال مشرد الذهن مكمدا حانقا .

وجلس حيث كانت سعاد بالأمس تجلس وشرع ينظر عن بعد إليها كما كانت تنظر عن بعد إليه . . وفجأة افتقد نفسه فلم يجدها . نسى كل شىء . لم يعد يخطر على باله ذكر الأجنبية الشقراء . لم يعد يفكر فى أصدقائه ، لم يعد يشعر أن الشاطىء من حوله مأهول بالناس .

أحس أنه وحيد ، أحس أنه منبوذ ، أحس الآن فقط ، فى هذه الدقيقة فقط ، أنه يحب سعاد حبا يفوق حد الوصف ، وأنه لم يحسن معاملتها ، ولم يضن بها ، بل استهتر وفرط فيها . وكان أحمق طائشا غبيا .

واستفاقت فيه على دهش منه نزعاته الشرقية الراقدة .

تبرم بهؤلاء النسوة اللواتى يعرضن أبدانهن العارية فى قحة وتحدى . استنكر منهن هذا الإغراء الشائن . استنكف النظر إليهن . استغرب من نفسه كيف كان يعجب بهن . حقد عليهن جميعا لأن من يحب أصبحت مثلهن فريسة لأبصار الغريب ومحطا لشهواته .

واستحال مرحهن فى نظره إلى تبذل ، وعريهن إلى تهتك .

ورشاقتهن وخفتهن إلى انحطاط وفجور .

وذكر كيف كانت سعاد بالأمس ، وكيف كان مظهرها ، وكيف كانت رصينة مهيبة محتشمة ، تحرص على ستر محاسنها ، وتغريه بالتحفظ مثلها ، وتحبه لما كانت تعتقد فيه من نخوة شرقية متأصلة . فازداد ألمه ، وازداد شعوره بمسؤوليته ، ومجت نفسه لهو الشواطيء ، وارتدت إلى سجن تقاليدها ، فخطر له أنه لو عاد الآن كما أرادت سعاد منه فى الماضى أن يكون ، فلا بد أن تنصرف عن أصحابها ، وتعرض عن الشاب الجميل ، وتعود توا إليه .

واستولى عليه هذا الخاطر فلم يتردد ونهض لساعته ، وأسرع إلى الكابين ، وارتدي ثوبه العادى ، ثم عاد إلى المقهى فجلس حيث كانت سعاد بالأمس تجلس ، وجعل ينظر عن بعد إليها كما كانت تنظر عن بعد إليه . . .

وكان فى عزلته كئيبا حزينا يترشف فى بطء قدحا من القهوة ، ولا يكاد يتطلع إلى البحر حتى تأكل الغيرة قلبه ، فيرتد طرفه زائغا وجلا كليلا .

وظل هكذا لحظات وملء نفسه الأمل أن تلمحه سعاد فتفهم . ولكنها كانت منصرفة بجمعها إلى هوايتها الشائقة الجديدة لا تسمع نداء عمها ، ولا تصل إليها صيحات زوجته ، وهى فى غمرة المياه ، تضربها ضربا عنيفا . وتشقها فى حمية ولهفة ، مشرفة

على منطقة الخطر ، يطاردها الشاب الجميل وتطارده ، وقد انتشت وغابت عن صوابها واتخذت من البحر الشاسع مسرحا لميولها الفتية التى طال صمتها واحتجازها .

وحز فى صدر محمود هذا الاستهتار الدال على فرط الشعور بالسعادة ، وتضاعف خفقان قلبه ، ولم يستطع الثبات فى موضعه فتململ وتحرك ونهض متأهبا لمغادرة الشاطىء ، وفى تلك اللحظة أبصرها . . أبصرها تندلع أمامه من جوف البحر كالشعلة يتبعها رفاقها الأعراب الذين جاءت بهم من شاطىء كليوبترة . فحدق إليها ، فابتسمت ، ثم لوت وجهها ، ثم وثبت إلى صخرة ناتئة ، ثم وقفت منصوبة القامة ، بارزة الصدر ، مزهوة بجمالها وشبابها ، ثم جعلت تعصر جدائل شعرها الأسود ، وجسمها الغض يتثنى ، وحبات الماء تترقرق منه وتتخاذل عليه لتقبله .

ولبث محمود يحدق إليها مسلوب الحول ، طائر اللب ، عاجزا مأخوذا ، لا يكاد يصدق أنها هى سعاد . ولا يكاد يتصور أن هذه الفاتنة من عذارى الماء هى اليوم خطيبته ويمكن أن تكون فى الغد لسواه .

وقهقهت ، وأسرعت بالقفز من الصخرة ، وبدلا من أن تتجه إليه وتحييه ، استدارت وتحولت ومرقت من بين أترابها ، ولحقت بالشاب الغريب الجميل .

عندئذ أفاق محمود من سباته ، وغلى الدم فى عروقه ، وأحس كبرياءه تنفجر فى صدره وتدفعه إلى الأمام ، فلم يتمهل ولم يحجم وانطلق فى أثر سعاد .

ولما اقترب منها ناداها باسمها ، فالتفت إليه الشاب الجميل عابسا مستكبرا ، أما هى فلم تعبأ ولم تتوقف ولم تجب . فكرر النداء ، فاتأدت فى سيرها قليلا ، وحولت إليه بصرها لحظة ، ثم استأذنت الشاب ، وتركته حانقا مذهولا ، وعادت إلى محمود وهى تضحك ضحكا ساذجا مطمئنا أشبه بطفل واثق بأنه لم يرتكب أى ذنب .

وغاظته منها ضحكتها الصافية فقال على الفور وهو يرعد :

— من هذا الشاب ؟

فهزت كتفيها غير مكترثة وقالت :

— لا أدرى . . . إنه صديق !

فقطب محمود حاجبيه وقال وهو يلهث :

— صديق ؟ . . . أشكرك . . . لقد تعرفت إليه هناك ولا شك . . مع بقية الأصدقاء . . فى شاطىء كليو بترة ؟

فأجابت وهى تقهقه :

— نعم . وكان يعلمنى السباحة كل يوم .

فاصفر وجه محمود وتمتم بين أسنانه :

— حقا لقد أصبحت ماهرة !

فاستضحكت وقالت :

— الفضل لك أنت .

فأهاجت هذه السخرية أعصابه وصرخ :

— أمنعك من الاتصال به !

فتطلعت إليه مندهشة ، ثم رمقته بنظرة جانبية من خلال أهدابها الطويلة ، ثم تطوحت وقالت وكأنها تدور حول نفسها:

— وهل أنا منعتك من الاتصال بالأجنبية الشقراء ؟

فأطرق وأجاب بصوت غائر وهو يعبث بأزرار سترته :

— لن أتصل بها بعد اليوم !

فانتفضت سعاد وقالت بصوت متهدج مرتعش :

— ألا تحبها يامحمود ؟

فرفع رأسه وألقى عليها نظرة . ألقى عليها نظرة تائهة بائسة ممزقة تمثل فيها كل ماعانته نفسه فى هذا اليوم المشئوم من صنوف الحرقة والكمد والعذاب فارتجفت وانخلع قلبها ولم تتكلم.

وساد بينهما الصمت لحظة ، وفجأة التصقت به وتأبطت ذراعه وأسرت فى أذنه كأنها تقبله :

— سامحنى يامحمود !

فأجفل واستضاء وجهه وصاح :

— لن ترين ذلك الشاب ؟

فهتفت :

— أبداً

فاستوقفها وأمسك بيديها وقال وهو يهزهما ويهدد :

— ولن أسمح لك بالنزول إلى البحر .

وتملكته عزته فأردف بصوت غليظ أجش :

— لم أعد أطيق رؤيتك فى هذا الثوب . . الأنظار تحوم حواليك . . الكل يتبعك والكل مأخوذ بك . يجب . . يجب أن تعودى كما كنت عليه . . أريد أن أرى سعاد التى عرفتها بالأمس .

فصمتت سعاد لحظة ، ثم شخصت إليه ، ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة حزينة ، وقالت فى بطء وهى تهز رأسها :

— لا . . لا يامحمود . . لو طاوعتك اليوم وعدت إلى ما كنت عليه فلا بد أن تنفر غداً منى وتنبذنى . . أنت لا يمكن أن لا تحب الفتاة الخاملة الجاهلة البلدية التى كنتها بالأمس . . لقد فهمت أخلاقك . . أنت تريدنى حرة وفاضلة ، جريئة ومحتشمة ، عصرية ومحتفظة . وسأكون كما تريد . . وسأظل فى هذا الثوب . . وسأنزل البحر . . و . .

فقاطعها محمود صائحا :

ــ لا أريد . . لا أريد .

فطوقته بذراعها وقالت وهي تحتضنه :

ــ ولكني لن أنزل البحر إلا معك .

فادرك أنها قهرته ولم يستطع إلا أن يرضخ ويبتسم .

* * *

واستطردا السير بخطى وئيدة غير شاعرين بأنهما قد بلغا الجانب المقفر من الشاطىء . حيث لا تعكر أصوات الناس زرقة السماء ولا تنتهك أجسامهم حرمة البحر . .

الدكتور سعيد عبده

مت ياحمار ..!!

١ - فى المنزل

الزوج : كم يكون الباقى من المرتب على هذا الحساب

الزوجة : ستة جنيهات .

— ستة جنيهات و نصف .

— ستة فقط فقد نسيت السكر والصابون .

— على أى حال نستطيع أن نشترى البدلة .

— بكل تأكيد . ونشترى الثلاجة .

— أية ثلاجة ؟

— التى وعدتنى بها .

— أنا وعدتك بثلاجة ؟

— أنكر إذا شئت ، ولكن عند ماندعو أحداً للطعام ، اذكر هذا جيداً ، ولا تصرخ لى فى المنزل كالبعير الهائج ، شاكيا من سخونة الماء .

— لكن يومئذ كان يوجد ثلج فى المنزل .

— ثلج ؟ .. أكنت تنتظر أن يظل الثلج ثلجاً طول

النهار ؟ اتظن نفسك فى القطبين ؟ ياعزيزى إن الثلج فى القاهرة، وفى شهر يوليو ، لايمكث أكثر مما تمكث فى جيبك النقود !

— هذا على فرض أنك تتركين فى جيبى شيئاً من النقود !

— أتظنني مسئولة عن بقائك موظفاً فى وزارة الحربية عشرة أعوام ، كخيبة الأمل ، بلا ترقية ولا علاوات ؟

— يوجد مئات غيرى يتقاضون نصف وربع مرتبى ، وهم . . .

— لماذا لم تعش مثلهم فى المزبلة ، ولا تغرر ببنات الناس؟

— سنعود للنغمة القديمة ؟ ونتعارك و نبكى ، وكل هذا لأنك تريدين ثلاجة . .

— أو قل لأنك أنت لاتريد ثلاجة .

— هذا شىء كمالى .

— لك أنت ، ولكن عندى أنا . . الثلاجة مثل الخبز والماء .

— لقد عشنا أربع سنوات بلا ثلاجات .

— كنا مغفلين .

— ألا يمكن تأجيلها شهراً ؟

— مت ياحمار حتى يأتيك العليق !

— ومع ذلك فقد أجلت أنت شراء بدلتى من شهر إلى شهر حوالى عشرة شهور ولم يمت الحمار !

— أكنت تريد أن نجوع من أجل أن تختال بسلامتك فى ثوب جديد !

— لم تكن هناك مجاعة ، ولكن المسألة كانت دائماً مسألة كماليات .

— لم أشتر شيئاً لنفسى !

— أبداً ؟

— أعنى شيئاً محترما ، وأرجوك أن تنسى يوماً واحداً تلك الهلاهيل التى أخجل من الظهور بها بين المعارف والأصدقاء !

— المهم أنه لم يكن هناك جوع ، بمقدار ما كانت هناك كماليات .

— كانت كلها لك وللولد التعس الذى من سوء حظه أن تكون أباه !

— ألا يمكن أن نتكلم فى جو هادىء وبألفاظ مهذبة ؟

— ممكن . . إذا اشتريت الثلاجة !

— أهذا أمر ؟

— لا . . أبدا . . . مجرد رجاء . ومع ذلك فلست أريد أكثر من صندوق صغير نضع فيه الثلج ولا يذوب !

٢ — فى محل شيكوريل :

الزوج — نريد صندوقا صغيرا يوضع فيه الثلج ولا يذوب !

العامل — ؟؟ . .

الزوجة — بالعربى ثلاجة !

العامل — تفضلي يا هانم ؛ تفضل يابك ، هذه ثلاجة تدار بالكهرباء ، وتصنع الثلج ، وهى قطعة أثاث جميلة كما تريان !

الزوج — لا . . لا . . نحن نريد مجرد صندوق . .

الزوجة — وكم ثمن هذه ؟

العامل — ثلاثون جنيها فقط يا هانم ، إنها تحفظ الطعام إلى الأبد ، وبها خمسة رفوف . . .

الزوجة — وهذه الأخرى ؟

العامل — هذه للتبريد بالثلج ، وتحفظ كمية محدودة من الطعام. ولها ثلاثة رفوف ، وثمنها ثلاثة جنيهات .

الزوج — ولكننا نريد فقط مجرد . . .

الزوجة — تكلم عن نفسك ـ من فضلك ـ أنت الذى تريد !

العامل — عندنا واحدة أصغر . .

الزوجة — لا لا . . هذه تكفى ، (للزوج) سيعيش الزبد والجبن واللبن عندنا بضعة أيام ، ولا تنس الفاكهة التى تتلف فى بضع ساعات ، وفوق ذلك . .

الزوج — أنا أعرف فوائد الثلاجات ولكن .. البدلة يا إلهام ! ..

— سنشترى البدله كذلك .

— وكيف نفعل والمبلغ كله ستة جنيهات ؟

— على الأقل نشترى الصوف فى هذا الشهر ، وفى الشهر القادم تذهب به إلى الخياط !

— وكذلك كنا نقول كل شهر منذ عشرة شهور .

— لكن فى هذه المرة لا يوجد شىء فى الوجود يمنعنا من التنفيذ ، والنقود ستكون موجودة، والخياط سوف لا يموت .

— إذن هيا بنا إلى قسم الأصواف .

— الأطفال أولا يا حضرة الوالد الفاضل .

— ولماذا الأطفال ؟

— أظنك لا تريد أن تدخل البيت على ولدك المسكين ، ويد من خلف ويد من قدام ؟ ..

— ألا تكفى لعبة ؟

— ولماذا لا تكون اللعبة ثوبا ؟

— ثم يكبر فيصير ثوبا وقبعة وحذاء، وأظل أنا بملابسى هذه أضحوكة الموظفين .

— دائما . دائما . . لا تفكر إلا فى نفسك ، بدلة فتحى

أولا وقبل كل شيء . . مدموازيل . . من فضلك بدلة لطفل عمره ثلاثة أعوام .

العاملة — تفضلى يا هانم ، هذه بدلة جميلة وثمنها خمسون قرشا فقط .

— أريد لونا أفتح وقماشا أحسن .

— هذه إذن ، ثمنها جنيه .

— لا بأس ، هذه جميلة حقيقة (للزوج) هل تنكفىء السماء على الأرض إذا أخذنا الاثنين ؟ إن واحدة معناها أن يلبسها كلما خرج فتتسخ ! وتبلى ، ونعود إلى الشكوى مما نشكو منه الآن . .

— لكن النقود ياعزيزى لا تتسع لكل هذا الإسراف . .

— إسراف ! أتظن خمسين قرشاً من أجل ولدك الوحيد إسرافاً ، فماذا لو كان عندك ثلاثة أولاد ، كان يجب أن تخجل من نفسك كوالد يضن على ولده الوحيد ببضعة قروش ، البدلتين يامدموازيل ! ! وهذه القبعة أيضاً أنها تليق للبدلة البيضاء !

— هذه ثمنها ثلاثون قرشاً !

— لا بأس (للزوج) هيّا بنا إلى قسم الأصواف .

— وماذا نفعل بقسم الأصواف الآن ؟

— نتفرج !!

— ونشترى فى الشهر المقبل بطبيعة الحال !

— أنت متعب ، اعطى المائة والعشرين قرشاً الباقية !

— لماذا ؟

— أعطنيها ، وتفضل بالعودة إلى المنزل ، وسأريك أننى حتى بهذا المبلغ التافه أستطيع التصرف بما يكفل رضاء الجميع!

٣ — فى المنزل

الزوجة — فى الوقت الذى لم تفكر فيه فى غير نفسك ، كنت أنا لا أفكر فى أحد سواك . أغمض عينيك الآن أيها الأنانى الكبير ، واحد ، اثنتين ، ثلاثة ، افتح عينيك وتأمل . . .

الزوج — كرافته ! ؟

— كرافته ، نعم كرافته . . كرافته جميلة ولك أنت ياناكر الجميل .

— ولكنها خضراء وليس عندى بدل بهذا اللون .

— ياعبيط هذه للبدلة الزيتى التى سنشتريها لك . فى الشهر المقبل إن شاء الله .

— إن شاء !

— سيشاء فكلمتى واحدة ولا تخر الماء !

— وهذه الكرافته هى كل ما اشتريت بالمائة والعشرين قرشاً ، وكفلت به رضاء الجميع ؟

— اسمع لاتمط شفتيك هكذا . أعد فمك إلى حيث كان..
هذا حسن . . وافرد جبينك المعقود . . أحسن . . وابتسم . .
بديع . . قبلنى الآن . . قل لى إنك تحبنى !

— أحبك. أحبك. هذا شيء لاشك فيه ، لكن ماذا
فعلت بسائر النقود ؟

— النقود ، النقود ، إن الذى يسمعك تتحدث عن النقود
يظنك مدير البنك الأهلى، تتحدث عن مليون جنيه ، وليس عن
ألف مليم ، أنت تريد أن تلبس أنت وولدك واظل أنا أنظر
إليكما ، وهذا كل ماتريد . . خذ . . الفستان وأعده إلى صاحبه،
وافرح باسترداد الثروة التى ضاعت فيه . . هىء . . هىء . .
هىء . . ياللبخت المائل . . وكنت ظننت أنك ستأخذ بين
ذراعيك مهنئاً إياى بحسن الاختيار ، وسلامة الذوق فى حدود
هذا الثمن الزهيد . . كل شيء لى يقف فى حلقك كالمسامير ، ومع
ذلك لاتفتأ تحدثنى عن الحب ! وبعين ينعكس عليها الرصاص .
هىءهىء هىء ابعد عنى . . قلت لك ابعد عنى لاتلمسنى ، لاأريد
فساتين ، أعده ارمه فى الطريق ، البسه أنت لكى لايضحك
عليك الموظفون . . اسحب يدك من هنا ، . . أنت تؤلمنى . . آى ،
آى . . قل لى أولا إنك راض عما فعلت . .

— كل الرضاء !

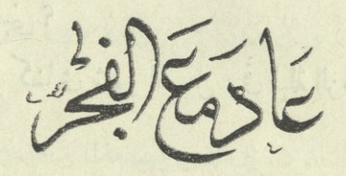
— وسعيد . .

— جداً . .

— وتحبنى ؟

— كما لو كنا فى شهر العسل ، فى ليلة الزفاف !

صلاح الدين ذهني



عاد مع الفجر

كان الطريق ممتدا عند حدود البلدة وقد استلقت على جانبيه المزارع الخضراء كأنها الأجنحة .

وبدا له وهو يسلك سبيله مبتعدا عن مبانى القرية أن لون النبات قد زاد اخضراره هذا اليوم ، وأن هـذا الطريق الذى عبده من قبل مئات المرات قد غدا أكثر انبساطا وأقل حفرا ، وكأنما كانت الدابة أيضا تحس مثله بتغير الحياة والطبيعة هذا اليوم وتنظر إلى كل شىء نظرة جديده . فهى تنقل أقدامها فى جذل وفرح ، وكأنما وقع حوافرها لمس أقدام غزال نافر لسطح من الرمال .

وحتى الناس الذين كان يلقاهم عبد العال فى طريقه لم يكونوا كما ألفهم . إنهم يحيونه فى نشاط وخفة ، وقد كان يلقاهم ويسير معهم كل يوم قبل هذا اليوم ، فلم يكن سلامهم يعـدو انتزاع

التحية من أفواه قد فرغت من التثاؤب لتعود إليه من جديد ، ولقد كانت صحبته لأحدهم تمتد طوال الطريق إلى الحقل فلا حديث بينهما ، وكأن صمتهما امتداد النوم ، لأجساد متعبة لا تقلقه إلا يقظة الكون وحركة الأقدام .

هكذا مر كل يوم قبل هذا اليوم . فهو يستيقظ كما يستيقظ العشرات من أمثاله قبل أن يستيقظ الطير وتنتبه الكائنات ، ليذهب إلى الحقل مع أنسام الفجر ، وكان يسلك نفس الطريق على نفس الدابة ولم تكن أجنحة الطريق الخضراء تبدو كما هى اليوم ، ولم تكن الدابة تحس الحياة كما تحسها اليوم .

وأخذته الدهشة أول الأمر ، لكنه أدرك سر هذا التغير . إنه ماض اليوم إلى المدينة . إنه لن يذهب إلى الحقل ، ولن تشرق عليه الشمس وقد تصبب عرقا قبل أن يلفحه شعاعها وإنما ستشرق عليه وهو يستقبل المدينة بقبابها ومساجدها التى تضم أضرحة أولياء الله . هؤلاء الذين طالما سمع حديثهم وأخبار ما يفعلونه من تفريج المكروب ويأس اليائس . أجل ستشرق عليه الشمس اليوم لأول مرة وهو سيد نفسه يحرك يديه كما يشاء ، بعد أعوام طويلة لم تتحرك يده خلالها عند شروق الشمس إلا ليضرب الفأس أو يبذر الحب منحنيا فى خضوع على الحقل .

كان قد قطع من الطريق الممتد مسافة طويلة وأخذت معالم القرية تتضاءل فى نظره وتبدو كأنها نقط سوداء فى ذلك السطح الأخضر المترامى ، وأخذت وجوه الفلاحين من أهل قريته تتناقص وتبـدو وجوه فلاحى القرى المجاورة فى سبيلها إلى الحقول ، وكانت الدابة لا زالت تخطر على الطريق فى خفة وهى لا تفتأ تلقى نظرات عابرة على الدواب المتثاقلة التى تمر بهـا ، وكلما حيا صاحبها زميلا من أخوانه أرسلت بدورها إيماءة سريعة لدابته وعادت مثله إلى تأمل الطريق .

وتتابعت الصور على نسق واحد : جموع من الفلاحين والدواب تسير نحو الحقول . وملّ عبد العال تأمل ما حوله ، وملت الدابة أيضا هذه الصور ، فـكفت عن التلفت ومضت لا تلوى على شىء ، على حين أخذ هو يحس إحساسا كاملا بنفسه وعواطفه .

إنه سعيد كل السعادة فهو ذاهب إلى المدينة فى أمر خطير . أمر قضى الأعوام السابقة من عمره منذ اشتد ساعده وذهب إلى الحقل يتهيأ له و يعمل من أجله !

إنه ذاهب إلى المدينة ليسجل حقه فى الحقل . ذلك الحقل الذى عمل فيه أجيراً ومستأجرا ، وأسال فيه من عرقه وشبابه ولحظات عمره ماأحال ذرات التراب فيه إلى أجزاء من جسمه وقطعاً من حياته .

هذا الحقل سيصبح ملكا له بعد ساعات. بعد أن يدفع حياته مرة واحدة وإنما سمع من ثرائه من وكيله الذى كان يأخذ منه الإيجار.

وغمرته السعادة فطاف بعينيه فيما حوله وتمنى لو ينثر من سعادته على الوجود وبدا له هذا الوجود بدوره سعيدا مثله يجيش بمثل سعادته فرد أمانيه وعاد إلى نفسه يستوعب ما فيها من هناء ويقلبه كأنه قرش اليتيم ..

ولمح الأبقار تحرث الأرض على جانبى الطريق فقفزت إلى رأسه صورة بقرته هو . بقرته التى عمل معها أربعة أعوام منذ ذلك اليوم الذى اشتراها فيه فلم يفترقا فى الحقل ولم يتباعدا فى الدار فكان خوارها وغطيط أسرته يمتزجان فى أذنيه ويبعثان إلى عينيه اليوم .

وانسابت خواطره وانتقل خياله بين أفراد أسرته ،والتصقت صورة البقرة الوفيه بصورة الزوجة على صفحات خياله وبدا له التشابه بين الكائنين ..

ذكر أن زوجته بدأت معه كما بدأت البقره : كانا يعملان سويا أجيرين فى نفس الحقل وكانا إذ ذاك شابين . كانت تجمع القطن وكان هو يحرث الأرض . فى نفس الحقل اجتمعا وامتزجت قطرات العرق التى صهرتها حرارة الشمس من أجسادهما بذرات ترابه .

وبعد خمسه أعوام من العمل المشترك راق له أن يتخذ زوجة ، وحدثته قطرات العرق وهى تتساقط أنها وجدت له زميلا ، ولم تمض شهور حتى امتزج الكائنان الكبيران كما امتزجت من قبل قطرات العرق فى الأرض .

لقد صارا زوجين ولم تتغير حياتهما أول الأمر . ظلا يعملان عملهما فى الحقل ، ومرت شهور ثم أصبح وحده الذى يقوم بالعمل ، كانت هى قد استقرت فى ركن الدار الصغيرة لتضع طفلا ، ثم مرت أيام عادت بعدها إلى الحقل تحمل له الطعام وقد اضطجع على كتفها مولودهما الأول ، ولم يخف عليها العبء منذ هذا اليوم بل زاد عليه هذا الوليد ، وكأنه لم يكن عبئاً وكأنما كانت تتلهف على عمل جديد فقد زادت بهجتهما به ، ولم يلحظ عبد العال أى تغير فى حياته . كان قلبها كبيرا وسع الطفل والزوج واستطاعت أن تعمل للحقل أيضا . . .

وتغير نوع العمل فلم تعد تجمع القطن أو تنق الحقل بل انتقلت إلى خدمة الماشية . كان هذا العمل الجديد هو كل ما اكتسبته من صفة الأمومة . إن عبد العال ليذكر كيف كانت تعنى به وبالطفل وبالماشية ، وكيف كانوا جميعا قطيعا واحدا عليها أن ترعاه ، وكيف مرت الأيام بعد ذلك وهذا

القطيع يزداد عدده فالماشية تتكاثر والأطفال تتكاثر . لقد أنجبت له ستة أطفال ثلاثة منهم يعملون الآن فى الحقل ، ولو شاء أن يحصى ما ربته من الماشية خلال هذه السنوات لأربى العدد على الخمسين . وهى مع ذلك لم تشتك يوما ولا ضجرت ، ولا بارحت بسمتها الهادئة شفتيها ، ولا تغيرت أغنيتها الساذجة التى طالما رددتها لوليدها الأول . هى هى الأغنية التى ترددها الآن . ترددها وهى تهدهد الطفل ، وهى تحلب الماشية ، وهى تطهو الطعام . كل ما جدّ عليها أن صوتها قد وهن قليلا فلم يعد قويا يملأ جنبات الدار الصغيرة أو يتردد على حافة الحقل وإن كان قد احتفظ بما فيه من حنان وأمل ورضى . . .

ووجد عبد العال نفسه يهمس فى حرارة ودون تفكير :

— يا لها من امرأة .

وتبين ما همست به شفتاه وأدرك بعقله معناه فهمس مرة ثانية فى قوة ووعى : . . أجل ! . يا لها من امرأة ! .

وتمهلت الدابة فى سيرها لتفسح لعقله مجال التفكير البطىء ، وأحس بأنه لا يهتز على ظهرها كما كان يهتز من قبل ، فتماسك جسده ، وتماسكت خواطره وتباطأت ، واستطاع عقله أن يقلبها فى عناية واتزان ، وعاد مرة أخرى إلى الجملة التى همست بها شفتاه وأخذت أشعة عقله تنصب عليها فلم تجد فيها إلا ألفاظا

لا تدل فى حسابها على شىء أكثر من شعور .

وبدت لعبد العال جملته سخيفة تافهة . إنها مجرد أنفاس خرجت فى الهواء ، ستظل آمنة — زوجته — بعدها كما كانت من قبل .

وحانت منه التفاتة إلى الدابة وكانت قد أسرفت فى التباطؤ ، فلمح الشريطة الحمراء التى حال لونها والتى لفتها آمنة منذ أيام حول عنق الدابة وذكر ما بعثته هذه الحلية البسيطة فى نفس الدابة من نشاط .

ومرت أمام عينيه صورة آمنة بعنقها ويديها وقدميها ، أمام هذه الصورة عشرات الصور لزميلاتها القرويات ، وأخذ عقله يقلب الجملة التافهة من جديد ، وتحركت شفتاه آخر الأمر بجملة جديدة ارتاح لها عقله :

— سأحضر لآمنة عقدا وأساور !

وعاد إلى الدابة نشاطها مرة ثانية ، وأفسح عقله المجال لخواطره وكف عن التحديق . وتتابعت الخواطر تلتهم الطريق حتى بدت قباب المدينة وأخذت تكبر شيئا فشيئا .

وقصد عبد العال أول ما قصد إلى السوق فاشترى عقدا زجاجيا وبضعة أساور من المعدن اللامع الأصفر ، وأودع ما اشتراه جيبه فى حرص ثم سار إلى قلب المدينة .

ومرت ساعة قبل أن يعثر على بيت صاحب الأرض وحين عثر عليه قيل له إنه لن يكون فى المنزل قبل العصر لأنه مدعو للغــداء .

وأشفق أن يضيع يومه الأول فى المدينة فيمم مساجد المدينة ليزور قبور الأولياء ، وطفق ينتقل من مسجد إلى مسجد وكلما مثل أمامه ضريح استغرق فى الدعاء والتوسل ولم يدع لنفسه فى واحد من هـذه المساجد وإنما انصبت أمانيه على سعادة أسرته وهنائها . وحتى فى هذا اليوم نسى نفسه كما نسيها طوال الأعوام السابقة .

وانتصف النهار وعبد العال يجول بدابته فى أنحاء المدينة ، واستقر به المقام أمام بائع متجول يحمل على عربتـه المتهالكة أطعمة متواضعة فالتمس عنـده ما يسد رمقه ومد يده إلى جيبه ليخرج الثمن ولـكنه لم يجد شيئا .

وتسمرت قدماه وأخـذت يداه تبحثان فى غير وعى وبلا جدوى .

كان جيبه ممزقا ولا أثر لحافظة نقوده ، ومع الجيب قد تمزقت صدارته وقميصه .

وقبل أن يفكر فيما أصابه كانت يده قد امتدت بالطعام إلى البائع ، ولم تع أذناه كلمة واحدة من ألفاظ السباب التى انهالت عليه

ومضى على غير هدى يجوب الطرقات وحاول عبثاً أن يستحث دابته فقد تثاقلت خطواتها وبدت كأنها كسيح يزحف فى إعياء . ولم يدرك عبد العال أنها تحمل معه كل ما ينوء به من آلام .

وكان لون الغروب قد كسا المزارع الخضراء ثوبا قاتماً وبدا جانبا الطريق كأنهما جناحا خفاش كبير يجثم عند الأفق، فلم يلحظ عبد العال شيئا مما حواليه ، ظل غارقا فى أفكاره القاتمة كلون المزارع ، يستعيد ماضيه منذ وعى ماحوله إلى اليوم إلى اللحظة التى دخل فيها السوق . . .

وفجأة مدّ يده إلى جيبه الجانبى فاستقرت لفافة أخذ يداعب مافيها ويتحسسه متفقداً .

وسمعت الدابة رنين الأساور والعقد فتحركت أذناها والتمع فى عينيها بريق عجيب ونشطت خطواتها .

وفتحت آمنة الباب متهللة وما لبثت أن سمعت من الزوج قصة ماحدث ، فعلاها الوجوم ، وعبثاً حاول عبد العال أن يهون الخطب وعبثاً حاول أن يرغمها على التزين بالعقد والأساور .

وقضى الزوجان ليلهما ساهرين على الفراش ، وأذّن المؤذّن للفجر فقفز عبد العال من فراشه فألفى آمنة عند حافة الفراش تحملق فى ذهول .

وقال عبد العال :

— لم تنامى يا آمنه .

وقالت :

— ولا أنت .

قال .

— افرضى أن المال لم يضع وأنى اشتريت الأرض ، كنت حاعمل إيه يا آمنة كل يوم فى الفجر ؟

وصمتت آمنة لحظة ثم أجابت :

— كنت حاتروح الغيط برضه ياعبد العال .

وقال عبد العال مسرعاً .

— طيب البسى العقد والأساور ، وأنا أروح الغيط ، وربنا يعوّض علينا .

وسرت فترة صمت تحرك بعدها القطيع ، عبد العال فوق دابته والبقرة أمامهما وإلى جانب الدابة سار أولاده ، عائدين نحو الحقل .

عادل كامل

ضباب ورماد

لم يكن فى الليل نجم واحد وطلع النهار بغير شمس .

هكذا احتجبت شخوص مسرح الطبيعة وراء الستار ، وقيل للبشر المتفرج أن انزووا فى جحوركم فليس الليلة تمثيل ولن يكون عرض فى الصباح . ويسألون عن الخبر فتهمس أعلام الطبيعة الصغرى من شجر وأنهار :

— لقد اعتكفت أمهاتنا الكبرى فى أبراجها العلوية .

ويردد البشر الواجف : — ما الخبر ؟

فتبتسم الورود الثرثارة ثم تميل على أعوادها متمتمة :

— إنهن يتدارسن أمرا خطيرا .

شاعت فى وجه البسيطة نذر الأمر الخطير . ونبض الجو بالهمس والصوت المكتوم فتملك الآدميين فزع غامض انطوى

عليه لا شعورهم ثم تسرب إلى أفئدتهم فى صورة إحساس ملهوف : إحساس ترقب شىء يخشونه ولا يدرونه ولكنهم يريدونه .

لازمهم هذا الشعور وهم يتمون زينتهم أمام المرايا . وظل فى حاشية وعيهم وهم يشربون قهوتهم الساخنة . ثم رافقهم وهم يسعون وراء ما يوصلهم إلى محال أعمالهم . وكانوا لا يزالون يدركونه وهم يقرأون صحفهم . ثم رجعوا به إذا آووا إلى بيوتهم يأكلون ويتماوتون .

أما هو فلم يغادر حجرته مع قوافل النمل الآدمى بل بقى قابعا إلى جوار النافذة يرقب طلائع هذا الصباح الرمادى . وكان فى يده كوب من الشاى أخذ يرتشف منه ثم يطلق أنفاسه الساخنة على زجاج النافذة فيكتسى أديمة بضباب فضى . وكأنما خالجته فكرة فأطرق مبتسما : إن نهار هذا اليوم يراه الخلق من خلال زجاج ناضج بالضباب ولكنه ما يلبث أن ينقشع فيبين . أما هو فإن نافذة حياته ليس فيها مطل واحد صافى الأديم .

الضباب . . . هذه حياته وهذا عنصره . وإن كان لقدره لون مافهو الرماد . الرماد اليوم ولدو الرماد إلى أن يموت . إن الناس يتألقون جمراً ثم يستحيلون ترابا ، أما هو فيعيش فى الموت حيث ولد . إنه دودة آدمية لا يحوى جسمها دما بل قيحا .

قيحا . . . يا للبشاعة ! لشد ما تمنى لو حوت عروقه دما حارا قانيا ! لشد ما اشتهى دفءالحياة يسرى فى أوصاله فيحرك مستنقع نفسه الراكد ! لشد ما زعق وصاح فى خلوته :

— إننى مضطهد مظلوم ، لم حقت على لعنة الضباب والرماد بينما ينعم غيرى بسورة الجمر والدم . . .

الضباب والرماد .

أما من فرار من ربقة هذين الشيطانين الغليظين ! إنه لا يطلب من جلاديه سوى ساعة واحدة يعيشها بقلبه وأمعائه ودمه ، يعيشها كما يعيش النبت إذ يمتص حياته من الأرض أمه . يعيشها بجذور كيانه الممتدة فى جوف الكون ، وبعد ذلك لن يضجره إن مات فى الرماد أو عاش فيه .

لحظة من جمر ودم . . . .

* * *

تضرمت ساعات قصيرة من النهار وهو لا يزال على هجوعه يحلم ويرقب . وكان الصباح يزداد دكنة حتى خشى البشر أن تكون الشمس قد أصابها ضر فتك بها إذ كيف ترضى بهذه العتمة تغزو صباحها وهى شمس ! وكيف تهادن البرودة فتتركها تجمد الأطراف وتميت النبت وهى شمس ! وكيف

تحتمل رؤية طرقات المدينة مقفرة موحشة كسارب المقابر وهى شمس !

ليس هذا صبحهم ولا تلك شمسهم . وأحس الناس أن دنيا هذا اليوم غريبة عليهم أجنبية عن إدراكهم حتى صور لهم أنهم يعيشون فى كوكب آخر غير الأرض — المريخ أو زحل فكان أن خافوا واكتأبوا .

أما هو فقد قهقه فى سريرته إذ أدرك لتوه أن اليوم يومه والصباح صباحه إنها فرصة العمر قد أتيحت له ليحيا فى عنصره فها هو ذا الضباب قد تكاثف لينشق منه ابن الضباب ، وها هى ذى الدنيا الغريبة على البشر ، قد جاءت تبسط صدرها لربيب الشياطين ، لعل الرجاء قد أثمر فاستجاب جلادوه الدعاء .

نزل « ابليس الصغير » إلى الطريق يضرب فى جنباته الخاوية وقلبه يحدثه بأن العالم اليوم ملكه وحده ، وكأنما هو زعيم سياسى غداة استيلائه على مقاليد الحكم فأصبح وحده الآمر الناهى بين رجاله وأعوانه ، وفرح بهذا الخاطر وانبسط فراح يحدث نفسه حديثا عجيبا :

— هكذا أنا ، إننى أشرف الناس جميعا لأننى أقذعهم سخرية ، أنا أكثرهم احتراما لأننى صعلوك . صعلوك بين الملوك ، ملوك صعاليك وصعاليك ملوك ليس لى دم أزرق .. ها .. ولا أحمر

إن دمى أبيض ، إنه القيح الملقح ضد كل شهوة وإحساس ، إنه دم الآلهة المنزهين عن الغضب والفرح والحب والحزن ، إن كل ما ليس آدمى إله . . أو شيطان . فليكن دمى من رحيق الأبالسة فلست بمبتئس ما دمت لا أمت إلى البشر بصلة .

لشد ما أمقت آدم وأبناء آدم وحواء وبناتها ، ولم تكن سعادتى لتكمل لولا أنهم يمقتوننى كما أمقتهم ، ولكن من منا بادأ الآخر بالكره ؟ لو أنهم ابتدرونى ببغضهم ، فأنا شخص ممقوت يصد السهام بأخرى من نوعها ، بينما لا أستحق ثوابا على كرهى لهم إن لم أكن أمقتهم فى حين أننى محبوب . محبوب ممن . . منهم ؟ من نفسى ؟ من الآلهة من الشياطين ؟ هذا لا يهم ، يكفى أن أكون شخصية محبوبة فى ذاتها ، ولكن هذا هراء ، فأنا شخصية بغيضة لا جدال فى ذلك ، وعلى أن أبنى سعادتى على هذا الأساس ، وإلا فأنا ملعون من نفسى بقدر لعنتى منهم .

بودلير . . . هذا الشيطان الملعون المحبوب ، ولكن ما لى وله ، إننى لا أنهج نهج أحد فى الوجود وإلا أصبحت بشراً كبعض أحزاب البشر .

فاوست . . إنه معتوه ، لقد رغب عامدا فى الشيطنة وما هو بشيطان ، دفع الثمن من دمه وأثبت المعاملة فى صك كأنما

يعقد صفقة فى سوق مع أن الشيطنة هبة وموهبة ، ولذا فما كاد الأجل أن ينصرم ويشرف المسكين على أبواب الأبد حتى نراه يعول وينتحب كالنساء ، وكلام كثير عن تأنيب الضمير والتوبة والندم : يا للعار . . كل عليه أن يفخر بنهايته كأى قديس استشهد فى سبيل الله ، فالحق أنه يجب أن يكون للأبالسة قديسين كما للأنبياء .

عيب البشر أنهم لا يثبتون على حال فتأتيهم الرهبة فى أعقاب الرغبة ويجرى الندم فى ذيول سعادتهم ، أين هو الرجل الثابت الصامد كهرم خوفو ؟ ولكنهم أمواج رقيقة مذعورة يقطعها عود من الشعب ، هؤلاء البشر . . .

هذا وغيره وكثير سواه .

ما كان اتعسنى منذ لحظة حين تمنيت ساعة من جمر ودم ! الرجل الصمل هو العنيد كالحمار ، الغبى كالبغل ، هو الذى لا يتمنى غير نفسه ، هذا قدس جدودى الثور وعبدوه .

هذا وغيره وكثير سواه .

ولكن هل أنا حقا كما أصور نفسى لنفسى أم أكون فى الواقع شخصية أخرى مخالفة؟ هل من أجالسهم وأحادثهم يدركونى فى هذه الصورة أم تراهم يقولون «ياله من فتى طيب خجول» !..

وحق نفسى لأقطعن ألسنتهم ، ولأدقن رءوسهم بالأرض .

ومع ذلك أفأن كنت غير نفسى وقابلت نفسى حول مائدة

شراب فهل كنت أقول عنها مثل ما يقولون ؟ هل يفرض على الناس شخصية اجتماعية ، أواجههم بها و ينكرون على أن أظهر بينهم بشخصيتى الفردية دكتور جيكل ومستر هايد . .

لا كان الناس ولا كانت آراؤهم التعسة ، إنهم إن قالوا عنى هذا القول فإنما يقولونه ليستروا خوفهم منى ورهبتهم إياى وهذا جهد ضائع ، فما أنا معنى بخوفهم ، أو مشتاق لرضائهم ، أو شاعر بوجودهم ، إننى وحدى من صنع نفسى .

ولكن . . .

ما لتلك الخواطر تزحم رأسى فتضنى نفسى فى يوم عرسى

أيكون هذا شعرا ؟ ما علينا ، لأمض فى بطن دنياى أحادثها فليس اليوم وقت المناجاة .

أوصلته هذه التأملات إلى خارج المدينة ، فما أن أفاق منها حتى وجد نفسه وسط حقول مغشى عليها من فرط البرد ، وقد اقفرت شعابها من كل داب ، وخلت أجواؤها من كل طائر .

ألقى ببصره على تلك المروج المذعورة فبدت له فى إطار الصباح الرمادى كبعض أحلام النـــائم التى تنتابه فى مطلع الفجر ، لم يكن فى الصورة المنشورة أمامه مشهد واحد حقيقى .

واستهوته هذه الفتنة الجديدة ، فمضى وسط الحقول متخيلا أنه صاحب هذا الفضاء باسره ، فكره أن يكون غنيا غنى طائلا فابتسم ، ثم قهقه فى صوت مكتوم ، أن يكون صاحب ملايين .

إنه يستطيع حينئذ أن يكره البشر بكل ما أوتى من قوة وأن يظهر هذه الكراهية بشتى ما يحلو له من وسائل . يستطيع مثلا أن يشترى قانون الحكام وأن يبتاع ذمم أولى الأمر . فإذا ما أمن جانب الدولة وانزاح عن عاتقه خطر السجن سهل عليه بعدئذ أن ينال الناس فى أعز ما يقدسونه وأن يسخر علناً بكل ما يضعونه موضع الاحترام وأن يسفه كل رأى يربط به القوم أمانيهم . له حينئذ أن يحقر ويلطخ كل معانيهم كالوطن ، والحرية والمساواة ، والعدالة ، بل والدين نفسه — دون أن يخشى عقابا أو يأبه بأراء الرعاع .

ويصبح فى مقدوره أن يتفنن فى هذه الأساليب وأن يجعل منها نظما قائمة على مؤسسات ثابتة تكون عنوان مسبة دائمة فى جبين الناس وهم لا يدرون . فهو يستطيع عن طريق ملايينه أن يجعل من سائس اصطبلاته زعيم حزب سياسى لا يلبث أن يشترى له الأعوان ، ويجمع من حوله الأنصار ، ثم يحلى أصابعه بالجواهر ويرشق فى سترته الأزهار ، ويطلقه من بعد ذلك يخطب فى قطعان الناس ، فما أن يهل عليهم ببلاهته المجسدة وغبائه البشع حتى يضجون بالهتاف والتصفيق وينتهون بحمله على الأعناق . وتصبح لغة الاصطبلات التى يحدثهم بها لغة السياسة المثلى وعنوان البراعة ورمز البلاغة .

فإذا استطاع بعد ذلك أن يوصله إلى كرسى الحكم .....
ما أعظمها سخرية وكم تكون الطعنة نجلاء والمسبة فاحشة حين
يخلعه بعد ذلك من منصبه ويعيده إلى وظيفته الأولى فيعلم قطيع
الخراف الآدمية أن حاكمهم الذى أشادوا بعبقريته لم يكن
سوى سائس فى اصطبل .

ألهته هذه السوانح الشيطانية حينا من الزمن فما أن أفاق
منها حتى وجد نفسه ينتفض من فرط البرد ، فقد كانت برودة
الجو تنفذ فى الجسم كإبر من جليد والريح تهب مثلوجة كأنها
أنفاس الأبالسة ، وكان صاحبنا قد غادر حجرته برأس عار
وعلى منكبيه رداء خفيف مالبث أن تآمر مع الجو فاستضاف
برودته .

نظر إلى يديه المقرورتين برهة وهو يبتسم ، كانتا ناصعتى
البياض لا يشوبهما سوى صفرة خفيفة فى سبابة اليد اليمنى من
أثر التبغ . وراقه ما لاحظه من نعومتهما ورقة أديمهما حتى
كأنهما أكف العذارى الخود لا يفارقن مخادعهن ولا تلمس
أصابعهن غير المخمل والحرير وقد بلغ من فرط رقتهما أن كادت
البشرة تشف عما تحتها من عظام وشرايين لشد ما أعجبه هذا !
إن يده ليست يد رجل . . .

غير أن البرد القاسى عاد يعكر عليه صفو راحته . فعمد

إلى حائط متهدم ليحتمى فى جوفه ولكنه وجد أن القرقد سبقه إليه. وفجأة شعر بأن نفسه قد تخلخلت وباتت بغير أساس، وبأن صدره أصبح فارغا خربا موحشا وكان كلما لفحه الريح بأكفه الميتة ازداد شعوره بوحدته وبقلة حيلته.

أجل هاهى الريح تصرخ فى وجهه بأنه وحيد وحد لا صاحب له ولا قرين، يقينا أنه ولد من أبوين وكان لهذين الأبوين أقارب وانسباء وأصدقاء فأين ذهب هؤلاء جميعا إذ بات ثم أصبح فإذا به فى عالم لا يعرف من مخلوقاته أحداً. لم يكن يعنيه أمر هذه الوحدة وهو قابع فى حجرته ولكنه وسط هذا البرد اللئيم شعر بحاجته إلى الدفء فتاقت نفسه إلى الجموع يستتر ويكمش

إذن فما أتعس الإنسان! إنه تافه هفاف يصطنع مشاعره من درجة الحراره ومن لون المرئيات ومن طعام كثير الفلفل. فهو يحب ويكره ويحسد ويثور، ويغضب وينتقم، ويرضى ويفرح، لأنه لمح قشرة موز ملقاة فى عرض الطريق، أو رأى القميص الداخلى لامرأة سائرة أمامه متدليا من تحت ردائها الخارجى، أو لأنه سمع بائعا ينادى على بضاعته بنغمة شاذة. أتكون مشاعر الأدميين من التفاهة والرقة بحيث تستثيرها هذه النكرات الحسية! وهل منع الإنسان حقا من أن يشعر شعورا أصيلا ثابتا لا يحركه سوى الأمر الخطير والمعنى الجسيم؟

إذن ما باله قد ترك شيطنته وأنكر اعتزازه بوحدته وراح يسعى وراء الجوع متمنيا وجود القرناء لمجرد إحساسه بريح باردة تلفح وجهه !

ومع ذلك فإن هذه العلل العقلية جميعها لم تنجح فى تحويل شعوره إلى الوجهة التى أراد وما لبث أن أحس بأن حاجته إلى الدفء قد تدرجت إلى نوع من الحنين الملح إلى شىء مجهول لايستطيع إدراكه. شعر بأنه يريد أن يحتضن إلى صدره شيئا ما وأن يطبق عليه بذراعيه فيعتصره . كأن فى أحشائه قطبا مغناطيسيا يتلهف إلى الاكتمال بقطب معاكس أو كأنما هو جائع إلى شىء فيريد أن ينطلق فى بسيط الأرض باحثا عن الشبع

عجبا ! أيكون « إبليس الصغير » متعطشا إلى حب امرأة !

إنه يذكر أن هذا الشعور بالجوع العاطفى كثيرا ما انتابه وهو لا يزال طالبا فى الجامعة تلك الأبنية المهيبة الأنيقة التى لا تحمل من معانى اسمها سوى أنها مكان معد لاجتماع نفر متفرق فى صعيد واحد. كان يخرج منفردا ليجوس فى الحدائق المحيطة بها فيخطر فى طرقاتها المورقة فى صعيد واحد. كان يخرج وتقع عيناه على النبات الأخضر وعلى الماء الراكد السجين ، ويطرق أذنيه صوت الدوح تسامر جاراتها ، وشدو الطيور تسمع أهل الأرض أنغام السماء . وحين تتعب قدماه وتسأم نفسه كان

يأوى إلى مقعد مهجور فى ركن ظليل فيجلس ويطرق . وما من مرة طال به المقام فى هذه العزلة الصامتة إلا وتنبه من أحلامه الحزينة على إحساسه بدمعه الساخن يتساقط على كفيه .

كان يبكى من غير وعى ، إلا أن وعيه الداخلى كان يدأب على أشعاره فى كل بادرة تسنح له بأنه وحيد وأنه محروم ، كان يحس بأن نفسه تكاد تتشقق من شدة الجفاف وأن فؤاده يصرخ مطالبا بالعطف والحنان اللذين لا يستطيع العيش بدونهما .

ويذكر أن فى ذلك الوقت كان إذا ذهب إلى مسرح أو سينما لم يكن يعنى بجل ما يعرض عليه من مشاعر مصورة ، غير أن ثمة نوعا واحدا من المشاهد لم يفشل مرة فى استثارته وتحريك لواعجه فكان يكفيه أن يرى أما تمر بيدها على جبين ابنها المحموم أو أختاً تستقبل فى أحضانها أخاها العائد من سفر طويل ، أو فتاة تحمى عشيقها بجسمها لتدفع عنه خطرا ما ، حتى يشعر بأن قلبه يعتصر عصرا .

بل إن كثيرا من مشاهد الحياة العادية ككلب يقبل مبصبصا بذنبه لتحية صاحبه أو زوج يساعد زوجه على الصعود فى الترام ، أو بائع جرائد يصلح من هندام زميل له ، أو عابر يأخذ بيد أعمى ليوصله إلى الجانب الآخر من الطريق ، أو بائع فقير يجود بشىء من بضاعته على شحاذ ، أو أم ترقب طفلها وهو يلعب

وسط المروج . . . كان أى واحد من هذه المشاهد كفيلا بأن يغمر عينيه بالدمع ويجعل شفتيه ترتجفان ، ثم لا يلبث أن يعض على نواجذه ويمضى فى طريقه كسيفا وقد عصفت به مشاعره المضطربة .

وكان يخيل إليه ألا نجاة له بغير الحب . فالحب على حسب ماكان يرى هو المظهر والمصدر لما يحتاج إليه الفتى من حنان عاطفى .

وأخيراً أحب ، ثم قبع فى وكره ينتظر الثمار . فكان بعد ذلك مالا يود أن تمر بمجرد ذكراه بباله . وإذا به ذات يوم يهجم على حبه فيخنقه ثم يحطم تمثال من أحب .

وقال — لأكن هذا الفتى الصلب العود المصفح القلب الذى يأنف من أن يبذل أنبل مشاعره فى الهوس والسخافات . وكان يحلو له أن يردد قول الأعرابى « ما بال الرجل منكم يموت فى هوى امرأة ! إنما ذلك لضعف فيكم يا بنى عذرة » .

وأحاط نفسه بالسياج فأصبح فى عصمة أنوفه منيعة وبدأ يشعر بجبروت الآلهة .

فما باله اليوم إذن يعود إلى وساوس إيفاع الشبان !

ازداد شعوره بالبرد فغادر مكانه وانثنى صوب المدينة ، وكان كلما خطا خطوة آلمته قدماه وكأنما يسير على قتاد مرهف .

وبعد أن سارشوطا مضنياً وقف تحت خميلة وارفة وهو مقرور، ووقع بصره على قرية بعيدة يتصاعد من أكواخها الدخان فاشتاق النار . وكانت القرية مضمومة على منازل متقاربة تتوسطها قبة بيضاء لجامع أو لمدفن أحد الأولياء . ولم يكن بجوار القبة مئذنة . وفى أنحاء متفرقة من هذا المشهد قامت أشجار الجميز الفرعونى العجوز فبدت كشحاذين مكفوفين يدبون على عصى . وظهرت فى الأفق البعيد قلعة القاهرة الشامخة تشرف على المدينة فتدمغ كل منظر بطابعه القاهرى . وكان الضباب يغلف هذا المشهد بأسره فيبدو كصورة خيالية من تلك الصور التى تصنع خصيصاً للسائحين الأجانب فيبتاعونها كتذكار ممثل للطابع القاهرى .

* * *

غادر مكمنه من جديد واستأنف السير حثيثاً حتى وصل إلى المدينة . وكانت الطرقات لا تزال مقفرة من السابلة والعربات تجرى مذعورة بين حين وآخر كأنما تفر من عدو مطارد وكان السكون مخيما فى كل مكان حتى خيل إليه أنه يهبط مدينة قد اكتسحها الغزاة فسلبوا متاجرها وفتكوا بأهلها .

شاهد مطعما فى طريقه وشعر بأنه جائع فدخله وبدأ يأكل ما طلب من طعام غير أنه لم يتناول سوى لقيمات حتى أحس

بأنه قد فقد شهيته تماماً فأمسك عن الأكل وأشعل لفافة أخذ يشهق دخانها بنهم .

وفجأة وقعت عيناه على فتاة فى الجانب الآخر من الطريق تقف أمام نافذة مكتبة، فتاة متوسطة القامة هيفاء القد ، ترتدى السواد ولها شعر فى لون الذهب . ولم تكن هذه أول فتاة صادفها فى يومه ، فقد مرت أمامه كثيرات غيرها رآهن يهرولن مطرقات كأنما قد مات أزواجهن وأخواتهن ثم لا يلبثن أن يتلاشين فى الضباب . ومع ذلك فقد وجد نفسه — ولسبب مجهول — يغادر مائدته ويدفع حسابه ثم يخرج إلى الطريق ، لعل ما أثار اهتمامه بهذه الفتاة هو أنها لم تكن مذعورة وجلى كسائر الخلق فى هذه الحرب بل وقفت منتصبة فى مهابة وهدوء تتصفح فى إمعان وتركيز الكتب المعروضة فى واجهة المكتبة .

وقف برهة يتأملها من جانب الطريق الآخر ، وخيل إليه أنها شاعرة بوجوده إذ لم تلبث حيناً حتى حانت منها التفاتة لم تستغرق ثوانى خاطفة ، وهبط على الفتى تردد وخشية ، فهم بالرجوع إلى المطعم ولكنه وجد الفتاة تدخل المكتبة فعبر الطريق للتوّ ولحق بها ، ولما دخل المكتبة جعل يحدق فيها عن بعد فرأى عينين زرقاوين وشفتين وردتين ، وبشرة فى لون

الحنطة . وفيما عدا ذلك كان وجهها مغلقاً صامتاً لا تبين قسماته عن عاطفة أو معنى ، ثم تكلمت فسمع صوتاً كترجيع الريح وسط الغابات المنعزلة فى قلل الجبال . كانت تسأل عن ديوان لشاعر مات فى شرح شبابه فعرف الناس بعد موته أنه لم يكن بشراً مثلهم بل روحاً علوية هبطت عليهم من السماء ، وبدا على الكتبي المنكمش فى دثاره أنه لم يسمع باسم هذا الشاعر من قبل . فهز رأسه واعتذر عن عدم وجود هذا الكتاب لديه .

غير أن الفتاة لزمت مكانها فلم تتحرك وصمتت برهة ثم قالت فى أمارة وسيطرة بأنها مستوثقة من وجود هذا الكتاب الذى تطلبه لديه ، وتضايق الكتبي من لهجة الفتاة فأجاب فى حدة خفيفة بأنه أعرف الناس ببضاعته وها هى الكتب معروضة أمامها فلتبحث فيها كما تشاء .

وكان هو فى هذه الأثناء قد اقترب حتى أصبح يواجه الفتاة فلما سمعها تعبر عن استيثاقها من وجود الكتاب امتلأ قلبه دهشة ، فقد كان هو الآخر يعرف أن الكتاب موجود كما كان يعرف موضعه من المكتبة ، ولكن هذا شىء آخر . فهو يعرف مواضع جميع الكتب فى معظم مكتبات المدينة لأنه يعيش معظم حياته فى حناياها ، أما الفتاة فكيف تأتى لها هذه

المعرفة وهو لم يشاهدها فى سوق الكتب من قبل، ثم أنها لم تر الكتاب ولم تعرف موضعه !

وفى حركة هادئة رفع الفتى يده فاستخرج الديوان من وسط الكتب وقدمه إليها بغير لفظ ، ولكنها لم تتناوله منه إلا بعد أن ظلت يده مبسوطة به بعض الوقت ، فلما أصبح فى كفيها، ألقت عليه نظرة ثم رفعت للفتى وجهها الصامت وتحركت شفتاها بلفظ فرد .

— أشكرك

أما هو فلم يجب ، بل ظل يحدجها بعينين مدهوشتين كأنما يشاهد رؤيا من عالم آخر، ومع ذلك فلم يبد على الفتاة أنها تضيق بنظراته ، ولكنها أيضاً لم تبتسم له بل قالت بعد برهة :

— لم تحملق فى ؟

ولكن الفتى ظل على صمته حيناً طويلا وأخيراً تكلم من غير أن يحول بصره عنها .

— آه لو أن شعرك أسود . . .

— إن ردائى أسود .

وبعد برهة صمت استطردت قائلة : —

— أرى أنك تهتم بالألوان .

— بل بما توحى به من معان . إن السواد هو العنصر الذى أعيش فيه .

— السواد ؟ . . .

— أكان من الممكن أن تكونى زنجية

— إن عينى زرقاوان .

— إنهما جميلتان.

— ولكنهما لا ترضيانك ؟

— لا أدرى .

ثم قال مقطباً :-

— من أنت !

— أنا . . .

وصمتت برهة ثم أجابت :-

— إننى أحب قراءة شعر الملائكة .

* * *

خرج معها إلى الطريق وسار بجوارها وهو مقطب . وبعد برهة سمعها تقول له :-

— لم تتبعنى ؟

التفت إليها وقد ازداد وجهه عبوساً ثم خاطبها فى شىء من الحدة :

— لست اتبعك بل أسير إلى جوارك ، إن كلينا مدفوع بيد واحدة وهو ما يضايقنى .

فبدأ على شفتى الفتاة طيف إبتسامة غامضة

— حقاً !

ووجد الفتى نفسه يصرخ لغير سبب

— أجل وكأننى موشك على الإستغاثة بالشرطى ليمنعك منى.

— ولكنك تركت مكانك ولحقت بى .

— إذن فعد رأيتنى حين كنت فى المطعم ،

لم تجب الفتاة فساد الصمت بينهما . وعلى حين غرة توقف الفتى عن السير وقبض على ذراع الفتاة بأصابع عصبية وأخذ يحدجها بنظر من نار . أما هى فلم يبد عليها أثر ما لهذه المفاجأة بل نظرت اليه فى هدوء وهو يقول : ـ

— أكنت تتوقعين رؤيتى اليوم ؟ اعترفى .

ولكنها رفعت عينيها إلى السماء ولوحت بيدها فى الفضاء

— اليوم ضباب ، انظر ، ما أشد التفافه حولنا .

واستأنفا السير فعاد إلى اطراقه وهو كظيم . أدرك لتوه أن هذه الفتاة الغامضة تقبض عليه بيد من حديد وأنها تستطيع معه ما تشاء .

لقد هبطت عليه من الضباب . ومع ذلك شعرت بأنها ليست من عنصره ، فهو لا يستطيع أن يسيطر عليها كما يسيطر على مخلوقات الظلمات التى يعيش فيها . فهو وسط الأبالسة حاكم

وأمير . وفى حنايا الجحور المستورة يتأتى له أن يأمر فلا يرد له أمر ، ثم إنه يقدر على التحكم فى معظم النفوس البشرية إن استطاع أن يدلف إليها من المسارب التى تلائمه . مسارب الدود الاملس والحياة السود حيث لاحكم للقسوة السوقية ولا للعنف القبيح بل يطلق المجال للحيلة الملتوية والعقل النافذ والإيهام البارع ، ولكنه لايجد مع هذه الفتاة ثغرة ينساب إليها منها :

آه لو كانت سوداء الشعر ولم تكن عيناها زرقاوين ...

ومع ذلك فقد أحس بلذة غريبة فى سيطرتها عليه وعبوديته لها ، وتأمل هذا الشعور الجديد الذى يملأ صدره فأحب لو استطاع دوامه بعض الحين ليتمكن من وضعه تحت مجهره فيجرى عليه تجاربه ، وحدث نفسه بأن لاخطر عليه من هذه العاطفة النامية مادام هو لايوحد مابينها وبين نفسه أو يلقى بكيانه فى خضمها . فهو على يقين من قدرته على إبقاء رأسه فوق سطح الماء . وما دام الأمر كذلك فهو يستطيع أن ينتشل نفسه متى شاء . فهذه القدرة على تجنيب نفسه من قيد وكفالة الحرية التامة لها فى الفكر والعمل هى أثمن ما استطاع انتزاعه من كبد هذه الدنيا البغيضة ، وهو فى سبيل محافظته على هذه الإمارة الروحية قد قطع صلاته بكل الناس ، ونفض عن قلبه قيد على عقيدة ودين حينئذ أحس بأنه يمسك الكون فى كفيه وبأنه فى عصمته

المعنوية هذه أقوى بكثير من كل طاغية أو امبراطور. إذ لاشيء على الأرض يستطيع أن يعتدى على شبر من آفاته الممتدة إلى ماوراء النجوم . — ولا شعب يهدده بالقيام فى وجهه ولا ثورة تقدر أن تسقطه عن عرشه ، فى حين أن الحكام عبيد لإرادة المحكومين، وعبيد لنفوسهم المشبعة بأغراض عمياء تقودهم من أنوفهم إلى هنا وهناك .

إلتفت إلى الفتاة وقال :—

— آترضين بمصادقتى ؟

— لم ؟

— لأننى أريد أن أحبك

أطلقت الفتاة ضحكة من مقطع واحد وقالت : ـ

ـ أنت فتى طيب القلب

أثارت هذه الإجابة ثورته فصاح

ـ لماذا تراوغين؟

ـ لست أراوغ

ـ بل أنت ككل النساء ، هل المرأة تستطيع إلا أن تكون قطرة من زئبق تتخذ كل الشكل ولاشكل لها ، وتسعى إلى كل غرض من غير أن يكون لها غرض ! لماذا لاتكونين قطعة من الحديد الصلب؟

ـ ماذاتريد؟

ـ أن نتحاب.

ـ أنت لاتستطيع الحب.

ـ إننى إذا أردت الحب فلاشىء فى العالم يمنع من قدرتى عليه.

ـ ولكن الحب ليس إرادة بل هو على العكس من ذلك.

نظر الفتى إلى وجهها الباهت فأحس بالحنان ينفجر من صدره وود لو حوى هذا الوجه فى يديه وغمره بالقبل.

ـ أجل

صمتت الفتاة برهة طويلة وهى سائرة إلى جواره: ثم إلتفتت إليه مبتسمة وقالت:

ـ هل أنت مستعد لأن تنجب منى أطفالا ؟

ـ توقف الفتى عن السير فجأة وصرخ مذعوراً.

ـ لا لا. إلا هذا.

ضحكت الفتاة وضربت بكفها على كفة قائلة:

ـ أرأيت .....

ـ لا.. إننى لا أحب الحياة فكيف تطلبين منى أن أعاونها على الاستمرار والبقاء.

ـ ولكن أنا هى الحياه أيها الفتى الطيب. فإن رغبت فى فعليك أن تحب الحياة أولا.

واصل الفتى سيره إلى جوارها وهو مغيظ ، فهاهى تكرر دعوته « بالفتى الطيب القلب » هذا التعبير البغيض الذى خشى منذ لحظات أن يكون المجتمع قد أطلقه عليه . وبعد برهة رفع رأسه وقال :

— هل تتعهدين بأن تبقى إلى جوارى دائماً فأستطيع أن أضغط على لحم ذراعك كلما أردت ؟

— إننى بجوارك مادمت تؤمن بأن الحياة ليست إرادة وبأن الحياة طاعة وخضوع ثم . . .

— ثم ماذا ؟

— لابد أن تنجب منى أطفالا .

وجم الفتى ، ولكن وجومه لم يستغرق سوى برهة قصيرة انطلق بعدها يقول :

— سأفعل كل ماتطلبين . إن عبوديتك تلذ لى وأشعر بأن أحب الأشياء إلى هو أن أطيع أمراً لك . . إننى أعبدك ، أتفهمين ؟

وأمسك بكفها يقبلها .

شعر بسعادة غامرة لم تعرفها حياته من قبل . وود لو اختلى بالفتاة ليبكى بين يديها بدمع غزير ثم يحدثها عن كل ماضيه أراد أن يبثها لواعجه وأن يطلعها على أشجانه التى تضنيه ثم يسألها

الصفح عما سلف ويطلب منها الإرشاد والعون على المستقبل.

لقد طلبت منه أن يخضع للحياة وأن يتنازل عن إرادته. آه لو درت بأنه الآن مستعد لأن يكون أسيراً لها وعبداً لأهوائها... أن يكون خادمها وكلبها وموطىء قدميها.. فإن مرت بأناملها الناعمة بعد ذلك على جبهته أو نادته باسمه أو ضحكت فى وجهه فقد نال كل شىء.

أجل إن عبوديته لها جمل من حرية نفسه أضعافا. كل شىء يهون ويتضاءل مادام جسدها الحار إلى جواره.

أمضى مع الفتاة بقية النهار فى حان فلما أن جن الليل وجد نفسه يسير معها فى دروب مظلمة، وكان طوال هذه الفترة يحدب عليها ويدللها كما لو أنها طفل صغير ناعم، وتمنى لو استطاع أن يحمل عنها عبء التنفس والكلام والحركة حتى يجنب مخلوقته الثمينة كل عناء أو طيف عناء، فكان يحضر إليها كل ما تطلب ويعد لها ما تشاء من مأكل ومشرب وصارت أعظم أمنية له أن يراها راضية قانعة فى ركنها الدافىء حيث يغمرها بنظراته الملهوفة، وهو فى كل هذا يدأب على تلمسها والضغط على يدها حتى يطمئن إلى بقائها بجواره.

ولأول مرة فى حياته أدرك معانى التقديس والعبادة والصلاة.

كان الجو لا يزال فاتك البرودة شديد العتمة والريح تصفر في الطرقات كذئاب جائعة ولقد خيل إليه أول أن خرج من الحان أن هذه العناصر كثيفة . وكأنما البرد واحتجاب الفتاة عنه قد تآمرا على النفوذ إلى عاطفته الوليدة فما لبثا أن غلفاها في إطار من الضباب ولم يعد الفتى يشعر بالأثر البالغ الذى كان لفتاته عليه من لحظات بل أصبح ينصت في وجل إلى زمجرة الريح الغاضبة فبدت له كوعيد طاغية مستبد يهدده بالويل والثبور .

أحاط الفتى خصر فتاته بذراعية وضغط عليه متمتما :

— لا لن يأخذوك منى ، سأقاومهم إلى النهاية .

ولكن الريح اشتدت وأخذت تلفح وجهه بسنان كالإبر فأدرك الفتى أن صحبته القديمة قد بدأت العمل ، فسرعان ماشاهد الضباب يهبط من جديد على المدينة ليلف معالمها ويحيل مشاهدها إلى أحلام مخيفة كخرافات الأساطير .

سحب الفتى ذراعه الذى كان يلف به صاحبته وابتسم في حسرة .

— لا بأس أيها الرفاق . اتركوها لى حقبة وأنا أعاهدكم بأنى لن أنجب منها أطفالا .

أما الريح فلم تهدأ ، وأخذ الضباب يثقل ويتكاثف حتى

هذه الترضية لم تخفف من حدة عشيرته الباغية .

— لماذا أنتم غضابى ! اتركونى برهة وثقوا بأننى سأنجح فى ضم من تدعى أنها الحياة إلى زمرتكم ياأهل الظلام .

التفتت إليه الفتاة تسأله :

— فيما تفكر ؟

لم يجب الفتى أول الأمر ، ثم انطلق يضحك ضحكا مكتوماً لم تنفرج عنه شفتاه وقال :

— أفكر فى رجل له ذنب وفى رأسه قرنان .

نظرت إليه الفتاة فى لهفة خيل إليه أنه قد نجح فى إخافتها . ولأول مرة فى هذا اليوم أحس بيدها تمسك بذراعه وتضغط عليها . لقد كان هو الذى يبدأها دائما بالمخاصرة والعناق فماذا دفع الفتاة الساعة لأن تكون البادئة ! أتراها قاربت منزلها فهى تحييه قبل أن تفارقه ؟ أم لعلها شعرت بما يدور فى رأسه من أفكار فهى تحاول أن تشد عضده ليقوى على مكافحة غرمائه ؟

إنها إن همت الآن بفراقه فعليه أن يتمالك نفسه فلا يظهر حسرة أو حزنا بل يسألها فى عدم مبالاة عن موعد لقائهما المقبل ثم يصافحها وينطلق .

وسمع الريح تهمس فى أذنيه وتقول :

— بل فلتعطها نقودا فهذا أوقع .

٭ ٭ ٭

كانا يسيران على أفريز ضيق والفتاة تتمتم بلحن خافت حزين . وصادفهما حائط أبيض ممدود فى جوف الليل كصراط يوم القيامة . وهم الفتى بسحب فتاته إلى ناحية الحائط الخارجية ولكنه وجدها تلزم ناحيته الأخرى فخطا ليلحق بها ، ثم خطر له أن لا يتبعها ، لم يتبعها ؟ فليمض كل منهما من أحد جانبى الحائط الذى إن فصلهما برهة فلسوف يلتقيان فى نهايته . ولكنه لم يكد يخطو خطوة فى الجانب الآخر حتى هبط عليه شعور غامض قابض فعزم على أن يعود فيلحق بصاحبته ، ولكنه لم يفعل بل واصل سيره فما أن بلغ منتصف الحائط حتى سمع همسا يملأ مسامعه .

— إنك لن تتبعها، ها أنت حر من جديد فهنيئا لك بسيادتك المستعادة أنت حر ، حر ، حر . . .

ووجد نفسه يقهقه قهقهة شيطانية ويقول :

— أجل ، لم تعد الفتاة معبودتى وإلهى ، ما هى إلا حشرة مسكينة سأجرى عليها تجاربى بينما أوهمها بأننى مشغوف بحبها ، ها ! ها ! هاى !

وفجأة شعر بأن قلبه يهبط إلى غير قرار ، وأحس بالدمع يسيل ساخنا من عينيه والغصة تملأ حلقه فصرخ قائلا :

— رحماك أيتها النفس العاتية ! اتركينى أعش . . .

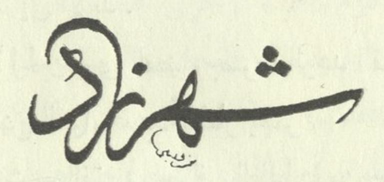
وأسرع إلى نهاية الحائط وجال بعينيه باحثا عن الفتاة فلم يجدها . . .

لم يحاول البحث عنها ، بل سار فى طريقه مطرقا وهو موقن أنه قد فقدها إلى الأبد .

وفى هذا الحين دوى الفضاء بصوت الرعد القاصف وومض البرق فى عرض السماء ثم بدأ المطر ينهمر .

وتلاشى شبح الفتى فى جوف الظلمات من جديد .

محمد فتحى أبو الفضل



— دعينى أنظر إلى عينيك .

— ها هما . . ما دمت تصر . .

— أوه لا ، لا . . لم تسرعين بإسدال جفنيك ؟ إننى أود أن أسبح فيهما لأصل إلى شاطىء أمين ، إلى عالم سماوى غير هذا الذى نرقص فيه الآن .

— هكذا ؟

— نعم ، نعم ، أنا لم أر بحيرات الجنة ، ولكن ما قرأته عنها فى كتب السماء ، يجعلنى أومن بأن صفاءها من صفاء عينيك .. أوه . . عدت إلى الإغضاء ثانية ، أتوسل إليك ، دعينى أنظر إليهما من جديد . . يا إلهى . . أتبكين ؟

— أنا ؟ أبكى ؟ !

— هاهى ذى أدمعك تكاد تحرق قناعك ، أسرعى برفع هذا القناع .

— لا تحاول .

— ولم ؟

— لا تسألنى . . صه . . ألست تسمع ذلك « التانجو » هذه القطعة التى ندور على أنغامها الآن من موسيقا الأغريق . . . اسمها Mimarotas

— ميماروتاس ؟ ؟ مامعنى هذا الاسم ؟

— لاتسألنى

— ولم لا ؟

— أوه . إنك لم تفهم ماعنيت ، هذا هو اسمها « لاتسألنى »

. . . ومددت يدى لأنزع عن وجهها قناعها فأفلتت من بين ذراعى وهى تقول :

— حذار فلن أراقصك ، ولن ترانى بعد هذه اللحظة .

. . كانت ليلة رائعة سهرت فيها إلى الصباح وأنا أكاد ألتهم ساقيها بعينى ، كان حفلا راقصاً مقنعاً ببهو فندق سميراميس ، وكانت قد انقضت على فترة طويلة دون أن أهنأ بدورة هادئة على نغمات الموسيقا وأنا أستند إلى صدر شاب . . ولفت نظرى قوام رائع . . امرأة صغيرة ، استرخت فوق أحد المقاعد

الكبيرة وقد أسندت ساقا إلى أخرى فتهدل ثوب السهرة الأسود الذى يكشف عن ظهرها العارى فبدا كصفحة نقية مصقولة من المرمر الناصع ، وبدت ساقها اليمنى كتحفة فنية أودعها « فدياس » عاطفته وفنه وذوب قلبه ، وأثارنى ذلك الوضع الفاتن ، فرفعت عينى إلى وجهها ، ولكننى تذكرت أن الحفل مقنع وأنها تحجب وجهها ، كما كنت أحجب أنا الآخر وجهى بذلك القناع الأسود اللعين ، وأخذت أنظر إليها فى استرخائها المتكسر ودهشت. الجميع يرقصون ، ولكنها آثرت الجلوس وحدها فى ذلك الركن المنعزل لتدخن فى هدوء ، . .

وأسلمتنى خصرها إذ سألتها أن تمنحنى رقصه ، وأخذت أدور بها على أنغام الموسيقا الهادئة ، وأحسست بأنوثتها تغلى إذ التصقت بى تماما ، وألقت برأسها إلى كتفى ، وخيل إلى أنها راحت فى نوم عميق . . وألصقت وجهى بشعرها الفاحم وأنا أقول لها :

— دعينى أنظر إلى عينيك .

فقالت وقد رفعت إلى جفنين حاصرتهما أهداب قطيفية وطفاء تختلج حول مقلتين ساجيتين

— ها هما . . مادمت تصر . .

ثم دار بينى وبينها ذلك الحديث القصير الذى قدمته لك فى بدء قصتى . .

وفرغنا من الرقصة ، فعادت إلى جلستها الأولى . . وعادت ساقاها العاجيتان تظهران ثانية كأنموذج فريد يحتذيه ناحتو الجمال ومبدعوه ، وقدمت لها لفافة وأنا أسألها .

— من تلك المجهولة الصغيرة التى منحتنى الآن رقصة العمر ؟

فسألتنى بدورها وهى تصلح من وضع أطراف ثوبها فوق ساقيها .

— تريد أن تعرف اسمى ؟

— إنى أرجو . . إن هو إلا رجاء .

فالتفتت إلىّ ، وخيل لى أن عينيها تبتسمان فى إطاريهما تحت القناع وهى تقول فى لهجة تتناهى بساطة :

— سمنى كيفما يحلو لك . . أى اسم . . ألهذا قيمة كبيرة ؟

فسألتها فى توسل :

— ألا أعرف من أنت ؟ ألا تصرحين لى باسمك حتى أخاطبك به ؟

— اختر أنت لى اسماً . . سمنى كيف شئت . . نعمت مثلا إذا أحببت . علية ، حورية ، إذا شئت . . ناهد ، عِزّات ، نبيلة إذا أردت . . أى اسم . . أوه ، دع هـذا إنه شىء تافه ، هيا لنرقص .

وعادت حيرتى من أمر هذه المخلوقة تعاودنى . . أحسست

أننى أكاد أجن شوقاً لرؤية وجهها فرجوتها أن ترفع قناعها ولكنها أسكتتنى بقولها :

— لن ترى وجهى ، ألا تقنع بأن تحوط ذراعك خصرى ، وأن يتكىء إلى صدرك صدرى وأن تغرق وجهك فى شعرى ؟ إنك شره ياصديق ، أتظننى لم ألحظ نظراتك النهمة الطويلة التى كنت تسددها إلى ساقى ؟ ماذا يعجبك فيهما .

— ماذا يعجبنى فيهما ؟ ياله من سؤال . . إنى أكاد أشك فى طبيعتهما ، يخيل لى أن فدياس قد تولى نحت هاتين الساقين ثم أهداك إياهما . . أؤكد لك أننى سأعرفك متى رأيتك ثانية ولو بعد سنوات . . سأعرفك برغم إننى لم أر وجهك ، سأعرفك متى نظرت إلى ساقيك ولوكانتا بين آلاف السيقان .. دعينى أنظر إليهما من جديد ، بربك ، بعينيك ، دعينى أنظر اليهما.

وتصاعدت أنغام الموسيقا من جديد ، وكانت نفس المقطوعة ميماروتاس (لا تسألنى) . . وأمكننى أن أرى حركة أهدابها السريعة وقد ازدحمت فى عينيها الدموع ، وكدت أخرج عن صوابى وأنا أرجوها فى يأس وصبر نافد :

— أتوسل إليك أن تخبرينى من أنت . . إننى رجوتك أن تصرحى لى باسمك فرفضت ، . . سألتك أن ترفعى هذا القناع لأرى تلك الصفحة التى تتوارى تحته فأبيت . . إننى فقط ، أود

أن أعرف من أنت ، ولكنك لا تريدين فلم يا .. يا ..

— ما ذا ؟

— أتدرين أى اسم سأطلقه عليك ؟

— أى اسم ستطلقه على ؟

— شهر زاد .

فأفلتت منها ضحكة لينة منسابة خفيضة كلها حياء فاتن وهى تقول :

— شهرزاد .. لا بأس ، ادعنى شهرزاد .. ولكن ، أيسعنى صبرُك ليلة وألف ؟

— إنه يسعك العمر كله ، فقط دعينى أر وجهك ، أخبرينى من أنت ما اسمك ؟ وما سر هذه الدموع التى تتصاعد إلى عينيك كلما صافحت مسمعيك تلك النغمات ؟

— دعك من اسمى ومن رؤية وجهى .. أما أدمعى فإننى أنا نفسى لا أدرى ما الذى يستدرها فى تلك الأنغام ، ولكنى أحس عند ما أنصت إليها بحنين طاغ إلى .. إلى لاشىء .. أو إلى شىء مجهول يقصر خيالى عن تصويره وتسميته .. أحس أننى فقدت شيئا كبيرا يلزم كيانى ووجودى .. لدى تسجيل لهذه القطعة ، ولكنى إذا أردت أن أستمع إليه ، لابد لى من أن أحيا فى جو عجيب فى غرفة خاصة أعددتها لسماع هذا « التانجو » ،

غرفة كل مابها أزرق اللون : جدرانها ، ضوؤها ، مقاعدها ، بساطها ، سترها ، الجرامافون ، حتى نفس القرص الشمعى الأسود المسجل عليه التانجو ، يمكنك أن تلاحظ أن اللافتة المستديرة الملصوقة عليه زرقاء اللون ، هيا . . إننى أود أن أرقص وسوف لا أراقص سواك هذه الليلة . . إنك رفيق رقيق ولو أنك ثائر الأعصاب بعض الشىء .

وأخذت فى هذه المرة أضمها إلى صدرى بقوة فى أثناء الرقص وبودى لو هصرتها وهى بين ذراعى مستسلمة ، متأودة نائمة . . وربما كانت تحلم . وانقضى الليل ، واذا بعقربى الساعة يشيران إلى الخامسة صباحا ، فجلسنا لنستريح ، ولم تمض دقائق حتى انتصبت قائمة وهى تقول :

— يجب أن أذهب الآن .

— هكذا سريعاً ؟

— قلت لك أنك لا تقنع ، ألم أقض إلى جانبك خمس ساعات لم أراقص فى خلالها غيرك ؟ سأتركك الآن . . يمكنك أن تصحبنى إلى باب الفندق إذا شئت .

— أتسيرين فى الطريق هكذا دون أن تنزعى قناعك ؟

— سأرفعه بعد أن أتركك .

ووصلنا باب الفندق فقفزت إلى سيارة استعارت من الفجر

الوليد زرقته ومدت لى يداً كأنها حلية من العاج دقيقة الصنع أهويت عليها بفمى ولم أتركها إلا وهى تقول «الوداع» فسألتها فى رجاء :

— ولم لا تقولين إلى لقاء.

فأجابت صادقة وفى غير التواء :

— لا بأس . . إلى اللقاء .

واستخفنى الفرح وأنا أقول :

— أحقا ؟ ومتى ؟ وأين ؟

— فى أول حفل راقص مقنع يقام بعـد هذا التاريخ ، فى نفس هذه القاعة .

ولوحت لى بيدها ، وانطلقت بها السيارة بسرعة بعثت إلى قلبى الذعر ، إلى حيث لا أعلم .

. . وانقضت على هذه الليلة أربعة أعوام طوال حاولت فى خلالها أن أعثر على صديقتى المجهولة فلم أوفق ، ذهبت إلى كل الحفلات الراقصة التى أقيمت فى سميراميس ولـكن . . . ، دون جدوى . . كنت كمجنون تجتذبنى فى الطريق أية قامة تشبه قامتها، ولـكنى كنت أعود دائما بخيبة مرة عند ما أقترب وأدقق النظر فى الساقين . . كنت أبحث عن مخلوقة لا أعرف لها وجهاً ولم يكن دليلى للاهتداء إليها غير عضو من بدنها . . عضو أصم ،

نظائره في غيرها من الخلق لا معارف له ولا ملامح ، ولكن ساقيها هى . . كنت أرى فيهما قسمات كما لو كانتا وجهاً أعرفه فأتبينه بين حشد من وجوه ، كان لساقيها « سحنة » أتعرف عليها إذا ما صادفتها . .

وكنت دائم السؤال عنها فى سميراميس ، كنت أستوقف أحد خدم الفندق وأسأله :

— ألم تأت إلى هنا سيدة مديدة القامة فاحمة الشعر ؟

ويطلب إلى الخادم أن أزيده إيضاحا عنها ليستطيع أن يقدم لى معلومات يثق من صحتها فأقول له :

— إن لها سيارة زرقاء . . أو رمادية لست أدرى . . لا . . لا . . إنها زرقاء على وجه التحقيق ، وهى تقودها بنفسها ، نعم تقودها بنفسها وبسرعة جنونية :

وأخيرا كان الخادم يحس أنه إنما يحادث معتوها فر من مستشفى المجاذيب ، ولكن بقية من حسن الظن بى كانت تدفعه لأن يسألنى :

— ألا يعرف سيدى اسم هذه السيدة ؟

— لا .

— ألا يذكر سيدى رقم سيارتها ؟

— لا . . إننى لا أعرف رقم سيارتها .

وأخيرا ، كان يبسط النوبى كفيه فى حيرة ثم يتأهب لمغادرتى وهو يقول :

— هناك مئات السيارات الزرقاء وآلاف السيدات ذوات الشعر الفاحم والقامات المديدة . . ليس أحد يدرى من تلك التى تبحث عنها يا سيدى .

. . أربعة أعوام كاملة مضت دون أن أعثر على صديقتى المجهولة التى لا أعرف لها اسما ولا رسما ولا دينا . . إلى أن حلت ليلة عيد الميلاد الأخير ودعانى صديقى عماد لتمضية السهرة فى داره بعد أن أضاعت الحرب الحاضرة من بهجة الحفلات الكبيرة التى كانت تقام عادة لهذه المناسبة فى المراقص والفنادق الكبرى . .

. . وتعانق العقربان فأشارا إلى انقضاء عام واستقبال آخر . . وفجأة سمعت « هدايت » زوج صديقى عماد وربة الدار ، تحدث إحدى المدعوات بمبعدة منها قائلة :

— حورية . . سأسمعك قطعتك الأثيرة ميماروتاس ، يجب أن ترقصى الليلة . . والتفت إلى جانبى . . ياالله . . نفس القامة الملكية ، ونفس الشعر الأسود الأثيث الذى يرقد فوق كتفيها فى دلال ، ونفس السيجارة ، . ولكن الثوب . . كان ضنينا كتوما لا يكشف عن ظهرها الأملس ولا ذراعيها العبلتين . .

وكان جميعه فى هـذه المرة من « الدانتلا » السوداء . . ولـكنى لم أتمكن من رؤية الساقين . . . . وأنشأ الحاكى يبعث موسيقاه الجنون ، فحدقت بعينى فى وجهها الذى كان سافراً هذه المرة ولم يكن يحجبه قناع سميراميس الأسود ، وسرعان ما اجتلت عيناى لؤلؤتين معلقتين فوق خـديها بخيطين من مقلتيها منهلين . . . فارتجفت ، واقتربت منها . . . ولم أكـد أرفع بصرى إليها حتى رأيتها تغير جلستها وتضع ساقا فوق أخرى .

ياللحلم البعيد الذى تحقق ! ! ! نفس الساق البللوريه ، بدعة قدياس ولـكن ، هل هى حقاً ؟ ؟ هل « حورية » هذه ، هى نفس المرأة الصغيرة التى اعترضتنى ذات أمسية فى سميراميس منذ أربعـة أعوام ؟ ؟ وشخصت إلى وجهها : كان وجهاً صافياً نقياً نازع الياسمين نصاعته ، وكانت تائهة العينين كأنها تودع حلما مفقوداً ، مطبقة الفم وقد ألصقت بشفتها العليا أختها السـفلى ، تلك الياقوتة الصافية ، يعلو خدها الأيسر ، وآه من هذا الخد ! خال أسود دقيق أبدعت السماء اختيار موضعه من تلك الوجنة الوردية الملساء . . . ولـكنى بت فى حيرة مضنيه ، أليس من الجائز أن أكون مخطئاً وأن تـكون هذه مخلوقة أخرى غير تلك التى ظللت أحلم بلقياها أربعة أعوام طوال ؟ ؟ . . وكان من العسير على أن أظلم عينى وخيالى إلى هذا الحد ، فالساقان هما هما فى

استوائهما وبضاضتهما وصقلهما الفذ الفريد ، والعينان هما هما كما كانتا تختلجان خلف القناع منذ أربعة أعوام ، ووضع اللفافة بين شفتيها ، وأسلوب جلستها .. كل شيء فيها أقنعني بأنني حققت حلمي القديم ، حتى وإن لم تكن هي فتاة سميراميس ، وكان الجميع يرقصون ماعدا هي وأنا تماما كما كنا منذ أربعة أعوام .. وحرت في أمري فرأيت أن أضع حداً لحيرتي فانفردت بصديقي عماد صاحب الدار وسألته :

— من هذه السيدة ياعماد ؟

— إنها حورية ابنه عم هدايت زوجي .

وعدت أسأله بعد صمت قصير :

— ولم تجلس منفردة هكذا فلا تشارك الجميع مرحهم ؟

فأجابني في رنة شاع فيها الأسى :

— إنها حزينة ، فقد توفي عنها زوجها منذ عام تقريباً تاركا لها طفلة في الثالثة من عمرها : وصمت عماد برهة ثم عادل يقول :

— هده السيدة يارءوف ، كان جديراً بك أن تراها أيام أن كانت «بنتاً» .. عذراء في سراي والدها . لم تكن لتتخلف عن حضور أي حفل راقص في شبرد أو في سميراميس أو الكونتنتال .. أتتصور أنها كانت تخصص في سراي والدها بالمعادي غرفة لتسمع بين جدرانها ذلك التانجو الذي يرقصون

على أنغامه الآن . . . غرفة استعارت كل رزقتها من السماء فصرخت به فى صوت مبحوح .

— عماد . . ما هذا الذى تقول ! ! لقد أضنانى البحث عنها عن هذه السيدة مدى أربعة أعوام . . أتتصور هـذا ؟ أربعة أعوام يا عماد أفنيتها هائما رجاء العثور عليها ، أربعة أعوام حفيت فى خلالها قدماى .. أتوسل إليك يا عماد أن تقدمنى إليها..

. . ولم تمض لحظات حتى كنت أجلس إلى جانبها وقد أحسست بالعالم كله بين يدى ، وانتهت القطعة الموسيقية ميماروتاس أو « لا تسألنى » فالتفتت إلى وهى تقول :

— لكم أحب هـذه القطعة ، لا يمكنك أن تتصور مبلغ شغفى بها .

فلم أترك الفرصة لتفلت منى فأسرعت بالإجابة :

— ولذلك أفردت لهـا حجرة خاصة تستمعين إليها بين جدرانها . .

وبدا على قسمات وجهها الاهتمام وهى تسألنى :

— من أخبرك بهذا ؟

— أنت . .

وتضاعف اهتمامها وهى تسألنى متعجبة :

— أنا ! ! متى ؟ هل عرف أحدنا الآخر قبل الآن ؟

فسألتها فى رفق .

— ألم تذهبي إلى سميراميس ؟

— كثيرا .

— ألم ترقصي في حفلات مقنعة هناك ؟

فاختلجت أهدابها ، وألقت فوق وجنتيها ظلا رقيقا وهي تقول :

— كثيرا ولكن قبل أربعة أعوام .

— حسن . . ألا تذكرين شخصا ألقت به المقادير إليك هناك ذات أمسية ، فاستأثر بك وظل يرقص معك دون أن يدع لغيره فرصة واحدة ؟

فأجابت بعد صمت قصير بدت في خلاله وكأنها تعمل ذاكرتها :

— لا . . لست أذكر .

وعدت أسألها من جديد :

— ألا تذكرين شخصا أبيت عليه أن يعرف اسمك عندما سألك إياه ، ثم حاول أن يرى وجهك بأن يحملك على رفع قناعك فأبيت أيضا ، ثم هددته بحرمانه رؤياك إلى الأبد إن هو أقدم على هذه المحاولة ؟

— لا . . لست أذكر .

— ألا تذكرين أنه كان يشك في طبيعة ساقيك ، فقد كان

يرجح أنهما من صنع فدياس ؟

فشاعت فى وجهها الصافى بسمة هادئة وهى تقول :

ـ يخيل لى أننى أجلس إلى شاعر .

فأجبتها على الفور :

ـ شىء كهذا . . ولكن انتظرى . . لا تهربى من الحديث. ألا تذكرين أن هذا الإنسان قد رافقك إلى باب الفندق فى الخامسة صباحا ، ثم طبع وسط راحتك قبلة يائسة ، ثم أخذ يتبع سيارتك وهى تبتعد بناظريه ، سيارتك الزرقاء أليست لك سيارة زرقاء ؟ ؟

فأجابت فى غير كثير من الاكتراث :

ـ لست أذكر ، لقد أبدلنا عدة سيارات .

وكان هذا أكثر من أن يتسع له صبرى ، ولكنى ملكت أعصابى بجهد كبير وأنا أسألها :

ـ أتأذنين لى فى أن أسألك إسمك .

فأجابت فى بساطة وكأنها تنكر على سؤالى :

ـ لقد أخبرك عماد زوج ابنة عمى هدايت . . اسمى حورية ، واسمك رؤوف ، ألم يذكر الاسمين أثناء تقديمه كلا منا للآخر .

ومن العجيب أننى كنت قد نسيت اسمها فعلا برغم أن عمادا قدم كلا منا لصاحبه منذ دقائق ، فإن مسلكها وتناسيها كل هذه

الذكريات التى حاولت أن أبعثها إلى خيالها بدد من ذهنى كل شىء حتى اسمها الذى ظللت أتحرق لمعرفته أربعة أعوام طوال .. وشاع فى وجهى ظل ابتسامة وأنا أسألها :

— أتأذنين لى فى أن أختار لك اسماً ؟

— غير اسمى ؟

— غير اسمك.

فالتفتت إلى وقد التقت أهدابها فى قبلات سريعة خاطفة ثم تقارب حاجباها اللامعان ، أشبه مايكونان بشطرى بيت من الشعر الرقيق ، وانفرجت شفتاها القطيفيتان عن بسمة هادئة وهى تسألنى :

— ماذا تريد أن تسمينى ؟

— شهر زاد .

فأفلتت منها نفس الضحكة الصافية الخافتة التى نفذت إلى قلبى منذ أربعة أعوام وهى تقول :

— شهر زاد ، لابأس .. هو اسم جميل ، ولكنى لاأرضى به عن اسمى بديلا ، ثم ....

— ماذا ؟

— هناك مخلوقة أخرى تحمل هذا الاسم وهى أجدر منى به يا .. ياشهريار .

ورأيتها تنهض مسرعة وهى تومىء لى برأسها ، وانسابت إلى إحدى غرف الدار كحلم جميل فر من جفنين ، وحاولت أن أراها ثانية فى هذه الليلة ولكن عمادا أنهى إلى أنها ذهبت .. آبت إلى دارها .. وأذهلتنى المفاجأة واستيقظ حبى .. نعم حبى ، فقد كنت أحمل لها عاطفة يقصر عن تصويرها لسانى ، عاطفة ثاوية بين حناياى منذ أربعة أعوام كاملة .. ورجوت عمادا أن يستعين بزوجه هدايت فيقنعانها بقبولى زوجا لها .. ولم أبرح دارهما إلا بعد أن وعدانى ببذل كل مافى طوقهما لتحقيق أمنيتى . وأبت إلى منزلى فى تلك الليلة كما لو كنت منحت جناحين ارتفعا بى عن الوجود الأرضى .. لم تتح تأملاتى للنوم أن يأتلف جفنى فآخيت يقظة دائمة .. وطاب للأرق طعامه الجديد ، بناء قصور من الأمانى العذاب فى ظل المرأة التى أيقظت فى نفسى إحساسا لم توقظه امرأة من قبل .. وأوشك على الانتهاء ذلك الأجل الذى حدده لى عماد وزوجه هدايت ليحملا إلى نتيجة سعيهما ، وإذا بى أتلقى فى ضحى اليوم الأخير هذه الرسالة :

إلى الصديق الكريم الأستاذ رءوف .

« من العسير أن أتصور أنك اقتنعت فعلا بأننى لا أذكرك برغم حديثك معى عن تلك الليلة البعيدة التى التقينا فيها بفندق سميراميس والتى حدثت فى خلالها عن غرفتى الزرقاء .

أربعة أعوام يا صديقى الكبير ، تغير فيها العالم كثيرا ،

فتزوجت أنا ، وأعقبت بنتا قد يدهشك أن تعلم أننى أسميتها شهرزاد . . إنها أمامى الآن بمقربة منى وأنا أكتب هذه الرسالة أستمع إلى صوتها الرقيق الذى أغنانى عن كل موسيقا العالم ، حتى تلك القطعة الرائعة « ميماروتاس » .

. . عادتنى ابنة عمى هدايت ، وحدثتنى فى شأن أمنية لك تعتقد أن فى وسعى تحقيقها . . ولكن ، إنى حائرة ياصديقى ، فإننى — وأقسم لك بذكرى تلك الليلة البعيدة الهانئة التى جمعتنا لأول مرة - إنى أقسمت على أن أكرس حياتى لابنتى شهر زاد بعد أن توفى عنى والدها . . والدها الذى بنيت به عقب تلك الليلة التى التقينا فيها بفندق سميراميس ، وإن شئت تاريخ الزواج بالضبط ، فبعد تلك الليلة بسبعة عشر يوماً لم يقم فى خلالها حفل واحد مقنع لكى أوافيك فيه . . لقد كنت أعلم أنك ترقب أول حفل مقنع لترانى هناك كما وعدتك . ولكن زوجى كان قد منعنى من مشاهدة جميع الحفلات الراقصه ، ولعلك الآن قد أدركت سر تخلفى عن هذا الموعد الذى كنت أرقبه أنا الأخرى بتشوف وتطلع .

ياصديقى الكبير ، إن كل ماأرجوه وآمله ألا يؤلمك عجزى عن تحقيق أمنيتك الغالية النبيلة ، ولكنك لاتتصور مبلغ حبى لابنتى شهر زاد ولا كيف يسرى هذا الحب فى دمى . . . . إنها قطعة منى منحتها حياتى وتفكيرى وكيانى ووجودى وهى دائما ،

كلما ناديتها باسمها ، يهيج هذا الاسم فى نفسى ذكرى ثاوية رقيقة باقية . . . . أتوسل إليك . . تناس أنك التقيت بى منذ أربعة أعوام وسأتناسى أنا أيضا ذلك الحلم الذى كان يطوف بى أحيانا فى خلال هذه الأعوام فيداعب خيالى بأنامل وردية رقيقة . . وليحاول كل منا إقناع نفسه بأنه لم يلتق بصاحبه إلا منذ أيام فى دار ابنة عمى هدايت وصديقك عماد زوجها ولتعمر الصداقة الكريمة الخالصة قلبينا ، وسترى أننا سنكون صديقين يعتز كل منهما بصداقة رفيقه ، أجمل بكثير مما لو كنا زوجين . .

وابنتى شهرزاد ، ذلك الرمز الباقى لتلك الأمسية الصافية البعيدة إنك لم ترها بعد . . هى قطعة صغيرة منى ، وسترى فى معارف وجهها الدقيق الصغير «حورية» أخرى فى الثالثة من عمرها ، هى أيضا ستكون صديقة صغيرة لك ، وستنتظر من Oncle. رءوف بعض الحلوى ودمية تأخذها بين ذراعيها عند النوم .

ولا يفوتنى قبل أن أختم هذه الرسالة أن أدعوك غدا الأربعاء ، لمشاهدة « شهر زاد » تقدمها الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقا لأول مرة على مسرح الأوبرا . . ومن يدرى ، قد نستمع فى فترة الاستراحة بين فصل وآخر إلى الشعبة الموسيقية تعزف قطعتنا المختارة « لاتسألنى » . أحبك . . وأؤكد لك ياصديقى الكبير صداقتى ؟

حورية

نجيب محفوظ

مائة جنيه..!!

كان أنيس أفندى رضوان فى طريق عودته من سينما مترو إلى بيته ، وكان قد بلغ ميدان سليمان باشا ، وأراد أن يعبر الطريق أمام النادى الكبير فشعر بقدمه تصدم جسما صغيرا فتدفعه إلى الأمام زحفا ، لم يكن حجراً ملقى ولا علبة فارغة ، وجذب انتباهه صوت زحفه على الأرض فتوقف عن السير وأبرز بطاريته وسلط نورها أمامه فرأى على بعد ذراع منه حافظة نقود... وأية حافظة ؟!.. حافظة نفيسة عليها طابع الثراء وزهو الجلال ، فاتسعت عيناه باهتمام ، ودق قلبه بعنف، وأطفأ مصباحه بسرعة ، وانحنى قليلا فالتقط الحافظة وألقى على ما حوله نظرة فاحصة ، فوجد أشباح السابلة تشق طريقها فى الظلمة غافلة عنه ، فدسها فى جيبه وحث خطاه وقد هزت أعصابه موجة من السرور والاضطراب، ولم يكن بسلوكه هذا قد ركن إلى الفرار بها ، كلا ولا عدا شعوره بعد دائرة الأفعال المنعكسة إلى نطاق القيم الخلقية ، فما هى إلا حافظة وجدت فى الطريق

فكان حتما التقاطها ، أما ماذا يفعل بها فسؤال لم يعن له بوضوح
إلا بعد دقائق من استئنافه السير ، ولما عن له رغب عن مواجهته،
لا كراهية له، ولكنه تأنى ريثما يعرف ما بها، فالرغبة فى تعرف
ما بداخلها غلبت على ما عداها إلى حين ، وفى البيت آوى إلى
حجرته واستخرج الحافظة من جيبه وفتحها فى رفق وعناية ،
ودس أصابعه فى الجانب الممتلىء منها فوجد رزمة من الأوراق
المالية ، عشر ورقات من ذات العشرة جنيهات . . . أى مائة
جنيه ، فارتعشت يده وهو يعدها فهو مبلغ لم يجتمع له مثله فى
حياته إلا حين أخذ أهبته للزواج، وبعد ذلك لم يحلم به قط ولا بنصفه
ولا بربعه . . وجعل ينظر إلى الرزمة الساحرة فى ذهول ودهشة
وما به من قوة على غير النظر الذاهل الداهش ثم تساءل ترى
من صاحبها ؟ . وعبثت يده إلى الجانب الآخر فوجد بضع
بطاقات تحمل اسم ع . ب . باشا وهو اسم يعرفه معرفة جيدة
وقل من يجهله لشهرته الذائعة الصيت، فصاحبه من كبار الملاك
وممن يضرب باسمه المثل فى الثراء الفاحش ، وأعاد الأوراق
والبطاقات إلى الحافظة ثم أودعها جيبه ومضى يخلع ملابسه
متسائلا عما هو فاعل ؟ ! . . فما عادت الإجابة تحتمل التأجيل
ولا بد من رأى يقر عليه ، ولكن كانت الإجابة كذلك
لا تحتمل التردد فأنيس أفندى رضوان رجل مهذب كريم الخلق

لم يدر له فى خلد يوما أن ينقلب سارقاً أو مغتصباً مال الغير ، وأبعد مايكون عن تصوره أن يستولى على مافى الحافظة آمناً مطمئناً ، فهذا مالا ترضاه نفسه ولا تطيب به ولا تفكر فيه تفكيراً جدياً ، وكيف لإنسان عاش عمره مهذباً عفيفاً فاضلا حريصاً كل الحرص على سمعته وسيرته أن يستهين - لدى أول تجربة - بمبادئه وعاداته ؟ ! . . . ففكر فى أمور أخرى تختلف عن هذه كل الاختلاف ، فكر فى أن يرد الحافظة إلى صاحبها الكبير . . وتمثل نفسه ماثلا بين يدى الباشا ماداً يده بالحافظة إليه، وقد أقبل الآخر نحوه فى دهشة ممزوجة بالاكبار وكال له الثناء العاطر ، فدق قلبه سروراً وتورد خداه وجبينه ، وفضلا عن ذلك فيبعد أن يكتم الخبر فى حيز ضيق وهل مثله من الأخبار التى يجوز أن تكتم ؟ . . فسيعلم به أصدقاء الباشا وأصدقاؤه هو،وآله وآل زوجته وربما رواه لأقرانه الموظفين وغداً يتغنى بفضله كل فاضل، بل لن يتم سروره حتى يتهكم به الذين لا يؤمنون بالمثل الأعلى والمبادىء ويرموه بالحماقة والغباء، وفرك يديه سروراً وحبوراً واستخفه الطرب ولبث متفكراً حتى اضطجع على فراشه وراح يراود النوم ولكن خواطره لم تهدأ ولم تسكن ، وظل موكبها الحاشد فى اطراد وازدحام ، وفى غرة منه اندست بينها خواطر جديدة لها همس مسموع

وإن كان خافتاً ، ملح وإن كان بغيضاً مقيتاً ، فما من الاستماع إليه بد رغبت فيه أو رغبت عنه ، أطعته أم عصيته ، أشبه ماتكون بالأنغام الجزئية فى اللحن العام لاتراد لذاتها بل قد تكون قبيحة لو سمعت بمفردها ولكن بغيرهالايستقيم اللحن العام فإن غلبت عليه صار اللحن نشازاً منفرداً ، جعل هذا الهمس يقول إن مائة جنيه ثروة لو أبقاها فى يده ظفر بها دون خوف أو شر ولكم تكشف عنه من كرب . . . أليست زوجة فى نزاع معه منذ أيام لأنها تلح عليه فى أن يبتاع لها معطفا وهو يتأناها طوراً بالاعتذار وطوراً بالشجار ، أو ليس هو مديناً بعشرة جنيهات وهى ماتبقى من نفقات جناز أبيه ؟ . . أو ليس هو فى أشد الحاجة لبعض الملابس ولتنجيد حشيات الفراش ومخداته ؟ هذا غير أقساط المذياع وعما قريب يختن ابن أخيه ويجد نفسه ملزماً بتقديم هدية ؟ . . فبعض المائة جنيه يقوم عنه بجميع هده الأعباء ويفيض منها مقدارا احتياطيا يطمئن إليه ظهره المثقل . . هذه هى الثروة التى يفرط فيها ويوشك أن يردها إلى من لا حاجة له بها ، . . أصغى إلى الهمس وأدرك أنه يستعين على اجتذابه بالرخامة والتطريب والملاطفة ، وسلم له بأنه حقا رخيم ومطرب ولطيف ، ولكنه سلم بذلك عابسا غاضبا ، وتململ فى رقاده تململ

الساخط الثائر ، وقال بعزم وقوة وهو يهز رأسه بعناد .. كلا .. لن تغير المائة جنيه من خلق أنيس ، وسيظل أنيس كما عهده الناس فى صباه وشبابه العفيف النظيف ومحال أن ينقلب لصا أو مغتصبا. ومن يعلم بالمخبأ فى الغيب ؟! .. ألا يجوز أن يعجب به الباشا فيكافئه ؟ ! ألا يجوز أن يستعلم عن وظيفته ومرتبه ثم يسعى لترقيته ؟! .... إن أمثال الباشا يقدرون على أشياء كثيرة والله لا يضيع أجر من احسن عملا .

وفى صباح اليوم الثانى قصد إلى قصر الباشا ، فأدخل إلى حجرة بسيطة أعدت لاستقبال ذوى الحاجات فانتظر فيها نصف ساعة مضت بين السرور والقلق ، ثم سمع وقع أقدام ثقيلة وفتح باب داخلى ، ودخل الرجل يتقدمه وجه طويل فى رأس كبير يتصل بجسمه بعنق يكاد أن يكون أفقياً ، ونهض الشاب قائماً فى أدب جم فلم يستطع فى اضطرابه أن يرى من الداخل سوى وجهه الطويل وأنفه الغليظ ونظارته المذهبة ولم تغب عنه نظرته النافذة الخالية من الترحيب فساوره الخوف ، ولكنه كان يعلم كيف يفوز بنصيبه الحق من الترحيب فانحنى للقادم فى إجلال ، ودس يده فى جيبه بسرعة وأبرز الحافظة وقدمها للباشا وهو يقول بصوت متهدج : « أظن أن هذه لسعادة الباشا » وتناول الباشا الحافظة وقد فاجأته الحركة لأنه كان يتوقع أن يمد له

الآخر يده سائلا لاعاطياً ، وألقى عليها نظرة فعرفها وتولته الدهشة ثم قلبها بين يديه بين مصدق ومكذب، ونظر مرة أخرى إلى الشاب وقد ارتج جفناه الثقيلان ، وأعاد عينيه إلى الحافظة ثم فتحها ونظر فى الودائع ثم رفع عينيه مرة أخرى إلى الشاب وهو يرطب شفتيه بلسانه ، وسرعان مالانت أساريره ولاح فى صفحتى وجهه المجدور الابتسام الخفيف . . ودعاه إلى الجلوس وهو يسأله « هل وجدتها ؟ ! أين ؟ . . متى . . »

غمرت الباشا موجة عارمة من الفرح والسرور واهتز لها قلبه طربا ، وكان اكتشف فقد الحافظة قبيل منتصف ليل الأمس بعد عودته من النادى مباشرة ، إذ كان من عادته أن يودع نقوده الخزانة قبل النوم، وبحث عن حافظته كالمعتاد فلم يجدها فى الجيب الذى ظن أنها فيه . فبحث عنها فى الجيوب الأخرى حتى جيب البنطلون فلم يعثر لها على أثر . فتولاه الارتباك واضطرب صدره ، ثم أعاد البحث بعنف وقلق فما وجد شيئا فارتد عن ملابسه مختنق الأنفاس . وكان فى النادى مع نخبة من أعضاء مجلس الشيوخ وبعض رجال المال ولايذكر أنه وضع يده فى جيبه ولاعنت حاجة تستوجب استخراج الحافظة ، فيقينا أنه لم يمسها طوال جلسته فى النادى ، وقد غادر مجلسه إلى سيارته مباشرة فكيف فقدت الحافظة ؟ . . هل سرقت ؟ ! . . أين ؟ . . ومتى

وكيف ؟ ! .. لم يلتق يومه بغريب .. والنادل رجل معروف فوق الشبهات .. وعاد مرة ثانية إلى البحث والتفتيش ، ثم عاد إلى التذكر فأيقن أخيراً أنها فقدت مافى ذلك شك وغلبه القهر والحزن وازدادت أنفاسه اختناقا ودمه ضغطا ، إن فقد عضو أهون على نفسه من ضياع مائة جنيه ! وماتصور يوما أن المال شيء يضيع ، فهو يتسم فى ذهنه بصفات الدوام والخلود والبقاء فلم يفقد فى حياته مليما ولاخسر مليما ، ولذلك اندفع بطبعه إلى جعل أملاكه عقارات وأراض حتى لا يتورط فى المضاربات أو يتعرض لتقلب الأسعار والأسواق ، ولذلك أيضاً كان من هواة الودائع والأمانات من أعداء الأسهم والسندات . . . نعم . . . المال متاع لايجوز أن يضيع أو يفقد فأين الحافظة ؟ .. أين المائة جنيه ؟ . . أيكلف مدير النادى بالتفتيش والبحث ؟ هل يبلغ محافظة العاصمة ؟ . . . يبدو هذا سهلا بادىء الأمر ولكنه لايستطيع أن يحرك ساكناً فهناك أمور أثلجت دمه وقبضت قلبه جبناً وخوفاً ، فلا يجوز أن يعلم أصدقاؤه بالحادث ولا أحد من الناس ولا الصحف ولا المجلات قاتل الله الجميع ، إنهم جميعاً يتنادرون ببخله وشحه ويروون عن ذلك الأعاجيب ، وهو يعلم ذلك علم اليقين وإن تجاهله وأعرض عنه ، وكثيرا مايبلغ مسامعه أو يطلع على نحو منه فى المجلات فإذا ذاع الخبر

تلقفه الجميع بسرور إجرامى وراحوا يخترعون حوله الأكاذيب وينسجون من مادته الملح، فيصير حديث النادى، ونادرة العزبة وموضوع المجلات.. رباه.. هى الشماتة الكبرى والفضيحة العظمى... فما العمل؟ هل يسلم بالهزيمة بغير مقاومة؟ هل تضيع مائة جنيه بغير دفاع؟.. تباً لأولئك الناس وهاتيك المجلات!. ودعا هذا الخسران بعض حوادث الأمس القريب إلى ذاكرته المحزونة فذكر خلافه مع ابنه على زيادة نفقاته الشهرية مما جعل الشاب يهجر قصر أبيه ويقيم مع عمته. وذكر كيف رفض أن يبتاع تذكرة حفلة خيرية بخمسة جنيهات معرضاً نفسه للغمز والتجريح، ثم ذكر كيف أبى أن يعين طالباً فقيراً بالقسط الأخير من مصروفاته المدرسية، فما جدوى أن يفوز فى هذه المعارك جميعاً إذا كانت النتيجة أن يخسر مائة جنيه فى غمضة عين؟ أو بغير بذل أدنى مجهود للتنقيب عنها؟... وبات ليلة مروعة فظيعة قل من يعرف مثلها بين الفلاحين والعمال وصغار الموظفين...

ولكن هاهى الحافظة ترد إليه.. وهاهى رزمة الأوراق المحبوبة.. فمن السرور مايعجز العقل عن تصوره، ألا ما أجمل الطمأنينة تخلف الفزع، والأمل يرث اليأس، والراحة تعقب التعب، ولم يستطع على رزانته وجموده وكآبته أن يضبط

عواطفه فاستخفه السرور وقال للشاب :

— فعلت الواجب، وندر فى بلادنا من يعرف واجبه . فنعم الفتى أنت !

وسر أنيس أفندى وتورد وجهه، وقال لنفسه « أول الغيث قطر ، وتهادى الحديث بينهما فى رفق ورقة، ولكن طبيعة الباشا لم تكن تحتمل الانبساط طويلا، فما لبث أن انقبض وسكنت عنه خفة السرور . لقد استرد نقوده واستعاد الشعور بملكيتها بقوة وشدة ، فهو صاحبها وهى له دون البشر جميعاً وما من قوة تستطيع أن تنزعها من يديه، حقاً إنه استرده بفضل أمانه الشاب، ولكنها أمانة أعادت حقاً إلى نصابه، فضيلة جميلة خدمت فضيلة جليلة . . ولكن هل جزاءُ الإحسانِ إلاّ الإحسانِ ؟ . . وعاد مرض البخل يغمز على قلبه فلا يدرى كيف يمكن أن يتنازل عن شىء من ماله وكأنه لم يفقده جميعاً منذ حين قصير ! . . وأسعفه عقله فقال له إن شاباً يتعفف عن مائة جنيه لا يقبل عشرة جنيهات مكافأة لأمانته .. نعم فمثله لا يفعل الواجب طمعاً فى ثواب، وسر بتفكيره أيما سرور، واطمأن إليه أيما اطمئنان، وكان قلب الشاب فى تلك اللحظة قد بات من شدة الرجاء والأمل كأنه فى صلاة حارة ، وقد بلغ منه الاضطراب واللهفة ، وجعل يتساءل متى ينطق الرجل ؟ متى ؟ ونطق الرجل فقال بلهجة واضحة:

ـــ أنت رجل ولا كل الرجال ، أنت ممن يفعلون الواجب حبا فيه لا طمعاً فى الثواب !

وتساءل أنيس ماذا يعنى الباشا ؟ .. أهذا حسن الختام ؟... وانتظر مرهف السمع ولكن الرجل لزم الصمت ، وراح سرور الآخر يفتر، وآماله تولى غاربة، ويلوح فى وجهه الارتباك والكآبة ولم يجد مفرا من النهوض فنهض قائما ، وطافت به أمنية سريعة فى نهوضه ألا يجوز أن يعلن الرجل ما فى ضميره إذ رآه يهم بالذهاب ؟ إن هذا جائز . . ولعله يريد أن يفاجئه بالجزاء كما فاجأه هو بالأمانة من حيث لم ينتظر ، فالأمل لم يفقد بعد . . هاهو الباشا ينهض ، وهاهو الآخر يمد له يده بالسلام ، التقت اليدان ... وافترقتا . . متى إذا ؟ ... وتراجع الشاب خطوات ... أما جاءت اللحظة الفاصلة بعد ؟ . . وولاه ظهره خافق الفؤاد وتحرك ثقيلا نحو الباب ، لم يدعه ولا قال نه انتظر ولا سأله عن عنوانه . . ، وهاهو يجتاز الباب ، ويعبر الحديقة ويخلص إلى الطريق . انتهى الأمر !

نجيب محفوظ

عودة سنوهي

ذاع خبر عجيب فى أنحاء القصر الفرعونى ، تناقلته الألسنة وتلقفته الآذان ، واستعاده السائلون والمتعجبون ، إن رسولا من بلاد عامورة هبط مصر يحمل رسالة إلى فرعون من الأمير سنوهى الذى اختفى فجأة قبل أربعين عاماً كاملة ، وكان لاختفائه أثر أى أثر فى بلبلة الأفكار وتضارب الظنون . وقيل إن الأمير يضرع إلى الملك أن يعفو عما سلف ، ويأذن له فى العودة إلى أرض مصر ليأوى إلى منعزل هادىء يترقب أجله فى طمأنينة وسلام . وسرعان ما ذكر الجميع القصة القديمة التى بترت باختفاء الأمير سنوهى ؛ فراجعوا حوادثها المنسية وتذاكروا أبطالها الذين أمسوا وقد أدركتهم الشيخوخة ، وأطبقت عليهم معاطب الكبر ، فتهامسوا وثرثروا ما شاء لهم التذكر والخيال . . .

فى ذلك العهد البعيد كانت المملكة أميرة شابة تنزل من قصر

امنمحيت الأول منزل الزهرة المتفتحة الناضرة من الشجرة الباسقة ، تكسو جسدها المستوفز أردية الشباب ومطارف الحسن، ويضىء روحها اللطيف وهج الذكاء ولوامع الفطنة ، فعلقها أكبر أميرين فى المملكة ، ولى العهد (الملك الحالى سنوسرت الأول) والأمير سنوهى ، وكان الأميران كالتوأمين تماثلا فى القوة والشباب والبسالة والثراء والمحبة والوفاء ؛ فهام قلباهما بالحب وناءت نفساهما بالوفاء ، حتى أمسى كل على صاحبه واجداً وله متحفزاً منطوياً على الغضب والبطش . وعلم فرعون بما يوشك أن يهتصر ما بين ابنيه من المودة والإخاء ، فجزع جزعاً شديداً ، ودعا بالأميرة وحادثها طويلا . ثم أوجب عليها أن تلزم جناحها بالقصر لا تبرحه ، واستدعى بالأميرين وقال لهما بحزم وصراحة:

— أيها الأميران ! إياكما والاندفاع الأعمى فى سبيل التهور والسفه فتضحيا ملومين محسورين ، وتنقلبا أضحوكة الأمراء ونادرة الشعب ، ولقد قال الحكماء : إن الإنسان لا يستأهل صفة الإنسانية السامية حتى يقدر أن يسوس شهواته وأهواءه ، فهل تسلكان سبيل الحيوان والهوام ؟ واعلما أن الأميرة ما تزال حائرة بينكما ، ولن تزال حائرة حتى يلهمها قلبها الاختيار . . . ولقد دعوتكما لتقطعا على نفسيكما أمامى عهداً .

وثيقاً لا ينقض، أن تنزلا عند حكمها راضيين، وألا يحمل أحدكما لأخيه إلا الوفاء والمحبة، سواء أكان ظافراً أم خائباً. فهل أنتما منتهيان ؟ . .

وكان صوته لا يحتمل التردد، فأحنى الأميران رأسيهما صامتين، فأومأ فرعون إليهما أن يتعاهدا ويتصافحا. فتعاهدا وتصافحا ومضيا متصافيين.

وحدث فى ذلك الوقت أن انتشر العصيان والتمرد بين القبائل اللوبية، فجرد فرعون حملة تأديبية جعل على رأسها الأمير سنوسرت ولى العهد، واختار الأمير سنوهى قائداً لإحدى فرقها؛ والتقت الحملة باللوبيين فى عدة مواقع فأطبقت عليهم حتى ولوا الأدبار، وأبدى الأميران من ضروب الشجاعة والبسالة ماهما أهل له. وإنهما لعلى وشك الانتهاء من مهمتهما إذ جاء ولى العهد نعى والده الملك أمنمحيت الأول، واتصل الخبر الأسيف بالأمير سنوهى؛ والظاهر أنه داخله الشك فيما عسى أن يضمره نحو الملك الجديد، وساورته الوساوس واستولى عليه القنوط من حبه، فاختفى فجأة كأنما ابتلعته رمال الصحراء؛ وكثرت فيه الأقاويل؛ فمن قائل إنه فرّ إلى إحدى القرى القاصية، وقائل بأنه اغتيل فى لوبيا، وثالث يقول إنه بخع نفسه يأساً من الحب والحياة، وتناثرت

الأقوال ردحاً من الزمن . ثم كلت الألسنة فأودعتها مقابر النسيان تحت ركام الزمن ، فغشيها الظلام أربعين عاماً ، حتى جاء أخيراً ذلك الرسول من بلاد عامورة برسالة الأمير سنوهى ، فأيقظ الغافلين ، وذكر الناسين . . .

وقلب الملك سنوسرت فى الرسالة عينين غير مصدقتين ، وشاور الملكة فى الأمر ، وكانت أوفت على الخامسة والستين ، فصدق رأيهما على أن يبعثا إلى الأمير سنوهى فى بلاد عامورة رسلا تحمل إليه الهدايا الثمينة وتدعوه إلى مصر آمناً مكرماً .

وذهبت رسل فرعون تضرب فى صحارى الشمال ، حاملة الهدايا الملكية ميممة عامورة ، ثم عادت وفى رفقتها شيخ فى الخامسة والسبعين ، استبد به الهرم فارتعشت أطرافه وظللت سواد عينيه سحابة باهتة ، وكان فى هيئة البدو يرتدى عباءة من صوف خشن وصندلا ، ويحتزم بحاملة سيفه ، ويرسل لحية بيضاء تغشى أعلى صدره ، ولم يكد يبقى منه ما يدل على أنه مصرى ترعرع فى قصر منف سوى أنه حين بلغ مسمعيه غناء ملاحى النيل تجلت فى عينيه الأحلام ، وارتعشت شفتاه الذابلتان ، وتردد النفس فى صدره بعنف فاغرورقت عيناه ، وما يدرى الرسل إلا والشيخ يسجد على شاطىء النيل ويلثم ثراه بحنان كأنما يقبل وجنة حبيب برح به فراقه . . .

وحمل إلى القصر الفرعونى ، وأدخل على الملك سنوسرت الأول فسجد بين يديه وهو يقول :

— ليباركك الرب أيها الملك الجليل على ما أوليتنى من عفو وما أكرمتنى به من الإذن لى بالعودة إلى أرض مصر المقدسة ..

فتفحصه فرعون بدهشة ظاهرة وهتف قائلا :

— أهذا أنت حقاً . . . أأنت أخى ورفيق صباى وشبابى الأمير سنوهى ؟

فقال سنوهى :

— إليك يامولاى مافعلت الصحراء وأربعون عاما بالأمير سنوهى .

فهز الملك رأسه وأدنى أخاه إليه بحنان واحترام وسأله :

— ماذا فعل الرب بك طوال الأعوام الأربعين ؟

فاعتدل الأمير فى جلسته وأنشأ يقول :

— بدأت يامولاى قصة الفرار بالساعة التى بلغك فيها نعى والدنا العظيم فى الصحراء الغربية ؛ هنا لك أعمانى الشيطان وأفزعتنى الوساوس ، فألقيت بنفسى فى تيار الريح تعبر بى الفيافى والقرى والأنهار ، حتى جاوزت الحدود بين هالك ومجنون . وفى بلاد الغربة أكرمنى اسم الشخص الذى فررت من وجهه وأعزنى جاهه : فكنت كلما أشرفت على كرب عذت بفرعون تذهب عنى الكروب . ومازلت فى تخبطى حتى علم أمرى شيخ

قبائل تونو بعامورة فدعانى إليه ، وكان شيخاً جليلا يكن لمصر ومليكها كل تجلة ومحبة ، فحدثنى بلسان قومى وسألنى عن مصر ، فحدثته بما أعلم وأخفيت عنه حقيقة شخصى ، فعرض علىّ الزواج من كبرى بناته فقبلت ؛ وقد بلغ بى اليأس من رؤية مصر مرة أخرى ، واستطعت فى زمن قصير — أنا الذى تربيت على عجلات فرعون المشهورة ، وخضت غمار الحرب فى لوبيا والنوبة — أن أتغلب على أعداء تونو جميعا ، فأتيت بهم أسرى وبنسائهم سبايا وبمتاعهم وسلاحهم أسلابا وغنائم ، فازدادت مكانتى رفعة ، وولانى الشيخ قيادة جيوشه . وجعلنى خليفته ، وكان شر مالقيت أن تحدانى كبير لصوص الصحراء ، وكان مارداً عملاقا يفرق من ذكره أشجع الرجال ، فجاء لمنازلتى طامعاً فى مكانتى وزوجى ومالى ، فهرع إلى الميدان الرجال والنساء والأطفال ، ليشهدوا أفظع عراك بين خصمين ، فصمدت له بين التهليل والإشفاق وصارعته طويلا ، ثم تفاديت ضربة فأسه الهائلة ، ورشقته بسهمى النافذ فأصاب عنقه ، فخر صريعا له خوار وحشرجة ، ومن يومها صرت سيد الصحراء دون منازع .. ثم خلفت حماى بعد موته وحكمت القبائل بالسيف وقضيت فيها بسنة الصحراء ، وتلاحقت الأيام والفصول والأعوام ، فشب أبنائى رجالا أشداء لا يعرفون سوى الصحراء مولداً وحياة ومجداً ومماتا . . ألا ترى يامولاى أنى ابتليت

بالغربة وتقاذفتني الأهوال والمخاوف وامتحنتني الشدائد ، ثم تمتعت بالحب والأبناء وذقت المجد والسعادة ، ثم أدركني الكبر والعجز فنزلت عن السلطان لأبنائي وقفلت إلى خيمتي أنتظر الموت . وفي عزلتي انتابتني الآلام ، واعتورتني الأحزان ، فذكرت مصر الجميلة ومراتع الطفولة والشباب ، فهاجني الشوق وغمز الحنين قلبي ، وتخايلت لعيني مشاهد النيل والخضرة الناضرة والسماء الزرقاء والأهرام العالية والمسلات السامقة ، وأشفقت أن يلحقني الموت فأودع أرضا غير أرض مصر ، فبعثت إلى مولاي رسولا ، وشاء عطف الملك أن يعفو عني ويرحب بي ، ولست أطمع في غير ركن هادىء أقضي به شيخوختي ، حتى إذا جاء أجل سنوهي فليدفع إلى المحنطين ويودع تابوته كتاب الأبدية ومرشد الموتى ، ولتنح عليه نائحات مصر بسجعهن الشجي ...

فاستمع إليه فرعون في لذة وحبور ، ثم ربت على كتفه برقة وقال له : « سيكون لك كل ما تحب » وعهد الملك بالأمير إلى حاجب من حجابه فقاده إلى جناحه بالقصر .

وقبيل المساء جاء رسول وقال له إن الملكة يسرها أن تستقبله ، فقام سنوهي من فوره ، يخفق قلبه الشائخ ، وتبع الرسول ، وكان بادي الاضطراب والشرود يتمتم قائلا : رباه .. أيمكن أن أراها مرة أخرى ؟ ... وهل تذكرني حقا ؟ هل

تذكر سنوهى الأمير الشاب العاشق ؟

واجتاز عتبة حجرتها كما يسير النائم ، فبلغ عرشها فى ثوان ، ورفع إليها عينيه ، فرأى وجه صاحبته وقد ألوت السنون بنضارة شبابه ولم تبق من حسنه إلا آثاراً واهنة ، فانحنى لها فى إجلال ولثم طرف ثوبها ، وقالت له الملكة وهى لا تخفى دهشتها:

— رباه ... أهذا حقا أميرنا سنوهى ؟

فابتسم الأمير دون أن ينبس بكلمة ، ولم يكن تمالك نفسه بعد ، فقالت الملكة :

— لقد حدثنى مولاى بحديثك ، فعجبت لحسن بلائك ، وشديد كفاحك ، وإنه ليدهشنى أن تجد من نفسك الصبر على فراق زوجك وأبنائك .

فقال سنوهى :

— رحماك يامولاتى ، مابقى من العمر أجل يتسع للآلام ، ومثلى لا يحتمل أن يدفن فى غير أرض مصر الحبيبة .

نخفضت المرأة بصرها هنيهة ، ثم رفعت إليه عينين تلوح فيهما الأحلام ، وقالت بصوت رقيق :

— أيها الأمير سنوهى ، لقد قصصت علينا قصتك ، فهل تعلم بقصتنا ؟ . . . إنك فررت حين بلغك نعى فرعون . ظننت أن منافسك وقد أصبحت له الكلمة العليا لن يبقى عليك ، فأطلقت ساقيك للريح ولذت بصحراء عامورة . . . أفلا تدرى

بما أساء فرارك إلى نفسك وإلى من تحب؟

فبدت الحيرة على وجه سنوهى ، ولكنه لم يخرج عن صمته فاستطردت الملكة :

— ولكن من أين كان لك أن تدرى بأن ولى العهد زارنى قبيل خروجكما على رأس حملة لوبيا ، وقال لى : «أيتها الأميرة ، إن قلبى يحدثنى بأنك اخترت الرجل الذى تهوينه ، فجابهينى بالحقيقة أعدك صادقا بالرضاء والوفاء ، وبألا أنقض عهدى أبداً ... »

وسكتت الملكة ، فسألها سنوهى متلهفاً :

— وهل صارحته بالحقيقة أيتها الملكة ؟

فأومأت برأسها بالإيجاب ، فاضطربت أنفاسه ، وقال بلهفة من رد أربعين عاماً إلى الشاب :

— وماذا قلت له ؟

فابتسمت لجزعه وقالت :

— أيهمك حقاً أن تعلم جوابى ؟ . . بعد انصرام أربعين عاماً ؟ . . . وبعد أن صار أبناؤك شيوخ قبائل توتو ؟ . . .

فلاحت فى عينيه الذابلتين نظرة حائرة ، ثم قال وقد تهدج صوته :

— يهمنى وحق الرب المعبود .

وكانت تحدج فى وجهه بلذة واهتمام ، فقالت مبتسمة :

— ماأعجب هذا ياسنوهى ! ولكن فليكن لك ماتريد ،

ولن أضن عليك بالجواب الذى كان ينبغى أن تستمع إليه قبل أربعين عاماً . لقد استنطقنى سنوسرت ، فقلت له إنى أمنحه ماأملك من مودة وصداقة ، أما قلبى . . .

وأمسكت عن الحديث ، فرفع سنوهى إليها وجهه وقد اضطربت لحيته باضطراب ذقنه ، وتجلب فى وجهه الدهشة والارتياع ، فاستطردت قائلة بصوت خافت :

— أما قلبى . . . فلا سلطان لى عليه . . .

فتمتم قائلا : . رباه . . . !

— نعم هذا ماقلته لسنوسرت . وقد ودعنى وداعاً مؤثرا ، وأقسم أن يبقى على أخوتك ماتردد فى صدره نفس . ولكنك تعجلت ياسنوهى وأطلقت ساقيك للريح ، فخنقت أملنا الناضر ، ووأدت سعادتنا ، وحينما حمل إلى نبأ اختفائك كدت لا أصدق ، وأوشكت أن أموت كمداً ، وقضيت على نفسى بالعزلة أعواماً طوالا . . . ثم . . . ثم هزئت الحياة بأحزانى ، فأبرأنى حبها من داء الألم واليأس ، فرضيت بالملك بعلا . . . . هذه هى قصتى ياسنوهى . . . .

وحدجت فى وجهه فرأته يخفض بصره فى سهوم ، وأصابعه ترتجف من التأثر ، فلبثت تنظر إليه فى حنان وسرور . وتساءلت : ترى هل يجوز حقاً أن تعابث حسرة الحب القديم هذا القلب الشائخ وشيك الفناء ؟! . .

عبد الحميد جودة السحار

الغاية تبرر الواسطة

استيقظت من النوم منشرح الصدر ، صافى النفس ... واتجهت نحو النافذة ، وأخذت أستنشق نسيم الربيع العليل ... ونظرت إلى الحديقة المزدهرة الوارفة ، وأخذت أسرح الطرف فى جمال الكون ، ثم رحت أذرع الحجرة جيئة وذهاباً ، نشطاً خفيفاً ، وأخذت أصفر لحناً خافتا ، ثم توجهت إلى الراديو وأدرته ، فسمعت المذيع يردد : « شمال ... يمين ... شمال ... يمين ... » ، فخلعت سترة (بجامتى) ، وانتظرت التعليمات الجديدة التى سيصدرها المذيع لأندمج معه فى الباقى من تمرينات الصباح الرياضية .

— شمال ... يمين ... شمال ... يمين ... هب عال ... انتهت تمرينات هذا الصباح .

أقفلت الراديو بحنق ، وأنا أوجه إليه الكلام :

ـ لا بأس ، سأقوم ببعض التمرينات وحدى .

استلقيت على الأرض ، ووضعت يدىّ تحت رأسى ، ورفعت رجلى إلى أعلى . وهنا دخلت زوجى الحجرة :

ـ ماشاء الله .. ماهذا ؟ هيا يارجل إلى الشرفة لنتناول الشاى !.

ـ خذ (بيجامتك) وهيا !   ـ أحضريه هنا .

ـ قلت لك أحضريه هنا !

ولما كانت زوجى تعلم صلابة رأسى ، فإنها خرجت وعادت وفى يدها فنجان الشاى ، وقالت :

ـ قم ، وخذ الفنجان .   ـ لا .

ـ أتريد أن أقف هكذا ؟   ـ لا .

ـ أين أضع الفنجان ؟

وهنا دق الجرس الخارجى فتلفتت زوجى عن مكان تضع فيه الفنجان قبل أن تذهب لترى من الطارق ، فلم تجد أقرب من رجلىّ المرفوعتين وهرولت نحو الباب .

ـ تفضل . تفضل . إنه هنا فى هذه الغرفة .

ـ فى هذه الغرفة ؟ ترى من يكون ؟ حاولت أن أقوم ونظرت إلى الفنجان فرأيت البخار يتصاعد منه فخشيت أن أتحرك لئلا يسكب علىّ ذلك الشاى المغلى ؛ فاستسلمت لله وبقيت فى مكانى ووضعت أصبعى فى أذنى وأغمضت عينى حتى لا أسمع ضحكات السخرية ، ولا أرى ما سيرسم على وجه الزائر المحترم .

فتحت نصف عينى فرأيت أخى يقهقه فأخرجت أصبعى من أذنى وزفرت زفير الاطمئنان .

— حسبتك غريباً . — مذنب ؟ — لا والله .

— ماذا فعلت حتى وجب عليك هذا العقاب ؟

— لا شىء . أقوم بتمرينات لإزالة السمنة فقط ...

— أية سمنة وأنت لا تزن أكثر من ٥٠ كيلو ؟

— والله لا أدرى .

وتململت فى رقدتى ، وأشرت إلى أخى ليرفع الفنجان فقال:

— سأفعل .

ثم رفع الفنجان وترك الطبق ، ورشف منه رشفة ، ثم وضعه ثانية فوق رجلى وقال :

— عندى خبر سار أريد أن أسره إليك .

— حسن . ارفع الفنجان لنتحادث ،

— لا . هكذا أحسن .

فنظرت إلى زوجى مستعطفاً ، فهزت لى رأسها علامة النفى ، وانحنى أخى حتى أصبح فمه بالقرب من أذنى وأسر إلىّ بكلمة فصحت :

— أهنئك . ثم وجهت الكلام إلى زوجى :

— ألا تهنئينه ؟ ما هكذا تقابل الأنباء السارة .

— علام ؟

— لن أقول لك حتى ترفعى هذا الفنجان اللعين .

فتقدمت ومدت يدها إلى الفنجان وقالت وهى ترفعه :

— أمرى لله . قل . — إن علياً سيتزوج .

— حقاً ؟ — هذا ما قاله لى .

— ولكن ممن ؟ — آه . . . لم تقل لى ممن ياعلى !

— من حسنية . — حسنية ! حسنية من ؟

— ابنة جيراننا فى شارع بين الجنانين . أظنك تذكرها ؟

— آه !

فالتفتت زوجى إلى علىّ وقالت: — أهى جميلة ؟

— مدهشة . — ومتى ستتزوج ؟

— لم أحدد الوقت بعد .

ثم التفتت إلى وقالت : فيم تفكر ؟

— لاشىء . لاشىء . لقد شعرت بجوع فقط .

— إذن هيا لنتناول الإفطار . . هيا يا على .

انتقلنا إلى الشرفة ودار الحديث بين زوجى وأخى عن حسنية وجمالها وكمالها وحسنها وأدبها ومشيتها وزيها ولم أشترك فى الحديث إلا بإيماء الرأس علامة الموافقة على كل مايقولون . كنت حاضراً معهما بجسمى فقط. أما أفكارى فقد كانت تسبح فى ذكريات الماضى القريب يوم كانت حسنية تمرح وتلعب وتسهر وتفجر معنا أنا ومحمود . لقد هممت أكثر من مرة بأن أصيح : « لا ياعلى ، إن هذا الزواج لن يكون . إنها لا تصلح

لك ، . ولكنى خشيت أن أضطر لذكر التفاصيل . إن زوجى المسكينة تعتقد أنى طفل كبير لا ماضى لى ، فكيف أذكر أمامها الآن أنى كسائر الناس لى ماض ، بل أمتاز عن سائر الناس بماض حافل زاخر بالمغامرات والفجور . إن غلطتى الكبرى هى أنى لم أذكر لزوجى بعد زفافنا أنى كسائر البشر لى ماض . ماذا كان يحدث لو أننى ذكرت لها كل شىء ثم أعقبت ذلك بقولى:

— كان هذا قبل أن أراك وقبل أن أتزوجك أما اليوم فإنى أدفن هذا الماضى للأبد.

نعم لقد كانت غلطة كبرى ومضت فلا يجب أن أبكى على اللبن بعد إراقته كما يقول المثل الإنجليزى .

سأنتظر إلى أن يستأذن أخى وأخرج معه وأقص عليه كل شىء ، ولكن لا ، إن هذا مما يزيد الطين بلة لأن أخى أرعن لا يتردد فى إفشاء قصتنا ، وسوف لا يمضى وقت طويل حتى تكون القصة قد بلغت زوجى مبالغا فيها منمقة حواشيها فأفقد بذلك سمعتى الطيبة عند أخى وزوجتى . إذن لأبحث عن حل آخر يحفظ لى سمعتى ويمنع هذا الزواج الشائن .

قام أخى مستأذنا وسلم علينا وانصرف، فدخلت إلى حجرة مكتبى وغصت فى كرسى كبير ورحت أفكر فى حسنية والحل

المنشود . وجدت نفسى أقلب صفحات الماضى فرأيت بعين خيالى حجرة استذكارى أيام كنت طالبا فى السنة النهائية بكلية التجارة ورأيت نفسى جالسا على كرسى بالقرب من الشرفة وفى يدى كتاب (الإفلاس) أطالع فيه . رفعت عينى عن الكتاب فرأيت فى البيت المقابل فتاة جالسة قبالتى تطالع فى كتاب فلم أهتم بها أول الأمر ، وتكررت جلستى وتكررت جلستها؛ وكنت إذا انتهيت من استذكارى انتهت من استذكارها ، وإذا ابتدأت ابتدأت ، وإذا أضأت نور حجرتى أضاءت نور حجرتها وإذا أطفأته أطفأته ، وفى ذات ليلة استجمعت شجاعتى وأومأت لها برأسى مسلما فأومأت لى برأسها ، وتكرر الإيماء بالرأس والابتسام والتطلع نحوها بين الفينة والفينة .

وفى صباح يوم حار أخذت قطعة الحديد الصغيرة التى أمرن بها عضلاتى وخرجت فى الشرفة لأقوم ببعض التمرينات فرأيت حسنية تظهر ثم تختفى ، ثم تعود وفى يدها مكنسة ، ثم قبضت على عصاها بيديها كما أقبض على قطعة الحديد وراحت تقلدنى ، فإذا رفعت قطعة الحديد إلى أعلى رفعت مكنستها إلى أعلى وإذا مددت ذراعى مدت ذراعيها وإذا رفعت قطعة الحديد بيد واحدة رفعت مكنستها بيد واحدة وهكذا . وضعت قطعة الحديد على الأرض فوضعت مكنستها على الأرض . أخذت أملأ صدرى بالهواء وأخذت تملأ صدرها بالهواء . حككت رأسى بأظافرى

فحكت رأسها بأظافرها . فقلت لنفسي : يالها من فتاة لعوب .

تركت الشرفة ودخلت لأحضر قميصي ثم عدت وأخذت ألبسه في الشرفة فمدت الفتاة يدها إلى مشجب قريب وتناولت قميص أخيها وأخذت تلبسه . ربطت رباط رقبتي فربطت رباط رقبة اخيها . أحضرت سروال بذلتي وخلعت سروال (بيجامتي) وأخذت ألبسه فأحضرت سروال أخيها ولبسته فوق جلبابها . أحضرت سترتي وطربوشي فلبست سترة أخيها وطربوشه فبدت في شكل مضحك ، فضحكت وضحكت ، فأشرت لها هيا إلى النزول فهزت رأسها علامة النفي ورسمت بأصبعها نصف دائرة من اليمين إلى اليسار أي سأقابلك غداً فأشرت إليها «متى» ، فأشارت بأربع أصابع ثم وضعت السبابتين متقاطعتين علامة النصف ، ففهمت أنها ستقابلني في الرابعة والنصف ، فقبلت أناملي وبسطت كفي ونفخت فيها ليحمل النسيم لها القبلة ، فأطرقت برأسها وهرولت نحو الداخل فقلت لنفسي :

— يالها من فتاة لعوب :

تقابلنا وتكررت المقابلات وسهرنا وامتدت بنا السهرات ولعبنا ولهونا وسكرنا بخمر القبلات ووسوس لنا الشيطان فشربنا المحرمات

وفي يوم من أيام الصيف وقفت حسنية في حجرتها ووقفت في الشرفة ، فأومات إلى برأسها وأومأت إليها برأسي

محييا ، وأشارت بأصبعها إلى صدرها ثم راحت تحرك ذراعها الأيمن كما يحرك القطار ذراعه وتتحرك فى الغرفة جيئة وذهابا ففهمت أنها تريد أن تخبرنى بسفرها فوضعت كفى متقابلين أمام صدرى وحركتهما إلى أن أصبح بطنهما إلى اعلى أى « إلى أين ؟ » فأخذت تقلد من يسبح فى الماء بتحريك ذراعيها ومد رقبتها ففهمت أنها ستسافر إلى الأسكندرية ، فأشرت لها ثانية إشارة أى مكان ؟ فوقفت تفكر قليلا ثم نظرت إلى اليمين وأشارت بأصبعها إلى قبة جامع قريب من منزلينا ثم هزت رأسها وصفرت وقفزت ورقصت علامة البشر والسرور ، ثم أشارت بأصبعها إلىّ ثم وضعته على صدغها أى « هل فهمت ؟ » فأومأت لها برأسى « أى نعم » وعرفت من الجامع والقفز والرقص أنها ستسافر إلى سيدى بشر .

ظهرت نتيجة الامتحان فحزمت أمتعتى وسافرت إلى الأسكندرية ، وعلى وجه التحقيق إلى سيدى بشر . نزلت بمحطة سيدى جابر فى السابعة مساء ولم أفكر فى أن أبحث عن مكان أضع فيه أمتعتى بل أسرعت إلى الكورنيش ، وكان يعج بالناس عجيجاً ورحت أتفرس فى وجوه المارة لعلى أعثر على حسنية . سرت إلى أن كلت قدماى وتعبت عيناى من كثرة الانتقال من وجه لآخر ، فتركت الكورنيش وذهبت إلى بنسيون وضعت فيه أمتعتى واسترحت قليلا . وغيرت ملابسى وخرجت أستأنف البحث فى الملاهى المبعثرة على الكورنيش . دخلت كازينو

الشاطبي ، وبيلافستا ، ولما لم أجدها توجهت إلى سيدى بشر وملاهيه ، دخلت الميزونيت والميامى وبحثت ونقبت ولكنى لم أعثر عليها . سرت على الكورنيش يائساً ، وعند بقعة هادئة مظلمة لمحت شابين يتعانقان فاقتربت منهما بدافع الفضول . نظرت إلى الشاب ونظر إلىّ وصاح : أهلا . أهلا . عدلى . ومد إلى يده مصافحاً وقال : متى جئت إلى الاسكندرية ؟

— الآن فقط . كيف حالك يا محمود ؟

ثم التفت إلى الفتاة وقلت لها بصوت هادىء :

— مساء الخير ياحسنية .

فردت علىّ بإيماءة ؛ فقال محمود :

— أصدقاء ؟ لالزوم لوساطتى فى التعارف إذن .

— أظن ذلك .

وسرنا على الكورنيش نحن الثلاثة ، وشهدت الاسكندرية وملاهيها وشواطئها وقواربها ومنتزهاتها وآثارها سهراتنا ورحلاتنا ولهونا وعبثنا .

تململت فى كرسى بحجرة المكتب ، وأخذت أتمتم : هذه هى حسنية التى يرغب أخى فى الزواج منها . إن هذا لن يكون ، سأبذل كل مافى جهدى وسأتبع الطرق المشروعة وغير المشروعة لأمنع هذا الزواج . سأذهب إلى محمود لعلى أجد عنده مخرجا !

نهضت ولبست ملابسى وتوجهت إلى محمود ، وفى الطريق خطر لى خاطر ، ولكنى ترددت فى تنفيذه ، وقام فى نفسى صراع

بين الاقدام والإحجام ، وأخيراً وطنت العزم على تنفيـذه ، ورحت أطمئن نفسى بأن الغاية تبرر الواسطة .

وصلت إلى بيت محمود وطرقت الباب فسمعت صوتاً آتياً من بعيد يسأل عن الطارق :

— من ؟ — أناعدلى.

— أنا فى الحمام الآن ، ادفع زجاج الباب وامدد يدك من بين قضبان الحديد وافتح الباب :

ففعلت ودخلت وأسرعت نحو الحمام :

— محمود ! — أفندم :

— لى عندك حاجة : — تـكلم ماهى ؟

— سأنتظرك حتى تنتهى .

— حسناً . — اسمع .

— ألم تقل إنك ستنتظر .

— أما زلت تقابل حسنية ؟

— مالك وهذا. لقد تزوجت وأصبحت من عباد الله الصالحين.

— أجب ودع الهذر . ألا زلت تقابلها .

— أهزك الشوق ؟

— أوه . . شوق فى عينك ! أجب .

ففتح محمود باب الحمـام وأطل برأسـه ورفع يده بالتحية العسكريه وقال — فى كل وقت ياأفندم .

— حسناً. — أى حسن فى ذلك .

— إن أخى يرغب فى الزواج منها .

— لاغرابة فى ذلك فهو «مقطف» كما كنا نسمى الرجال الخام.

— دع عنك المجون الآن .

— ماذا تريد منى أن أفعل ؟

— سأدفع لك ثمن تذكرتين لتدخل بهما أنت وحسنية إحدى دور السينما ، كما سأدفع لك ثمن تذكرتين لى ولأخى على على أن تختار مقعدينا خلف مقعديكما مباشرة .

وفتح باب الحمام وخرج محمود ومد يده وقال « هات » فوضعت يدى فى جيبى وأخرجت ثلاثين قرشاً وقلت :

— خذ . اختر المقاعد فى طرف الصالة واختر يوماً من الأيام الراكدة . الأربعاء مثلا . فاهم ؟

— كل الفهم .

— وعليك أن تميل عليها وتقبلها عقب وصولنا ، اتفقنا ؟

— لا لم نتفق — لم نتفق ؟ وماذا تريد ؟

— أجر الركائب — خذ خمسة قروش

— ومقدم الأتعاب . إنى مفلس . ولا تنس المصاريف النثرية من شيكولاتة إلى فستق .

فناولته عشرين قرشاً فوضعها فى جيبه وقال :

— هذا مقدم أتعاب .

— لا ياحبيبي . هذا مقدم ومؤخر الاتعاب و النفقة أيضاً .

* * *

وفي اليوم الموعود دخل أخي حجرتي وقال :

— ألم تلبس بعد ؟ هل عدلت عن الذهاب إلى السينما ؟

— لا ياعزيزي . . سنذهب حالا .

— الساعة السادسة والربع .

— لا بأس . إني أحب أن أدخل السينما متأخراً كالناس العظام . .

— أوه . لم تتغير . لازلت «فنزوحاً» .

وصلنا الى السينما بعد إبتداء العرض ، واحتللنا أماكننا ووكزت محمودا في رجله فمال على حسنية واحتضنها فأشرت بأصبعي نحوهما وقلت : — انظر .

فهمس : دعهما .

فقلت : ياللك من عاشق لا تحب أن تفسد على العاشقين صفوة ساعاتهم .

ومال محمود عليها وطبع قبلة على خدها فهمست «ياللوقاحة . إنه يقبلها» فقال أخي .

— لعلها خطيبته .

— خطيبته ؟ يقبلها هنا . إنها وقاحة .

في فتره الاستراحة أضيئت الأنوار فتطلع أخي إليهما فشحب

لونه وتغيرت هيئته وطفق يشهق ويزفر بصوت مسموع ولم يستطع أن يخفى اضطرابه فسألته عما به فقال :

— لاشيء . . لاشيء . . . تعال نخرج من هنا .

خرجنا إلى الردهة الخارجية فكررت عليه السؤال فهمس

— إنها حسنية .

فتجاهلت وسألته : من هى ؟

— تلك التى كان يقبلها .

— حسنية من ؟ خطيبتك ؟

— لا . ليست خطيبتى . . قد كنت أعمى .

ورن الجرس فى الردهة لينبه المشاهدين إلى قرب استئناف العرض فجذبت أخى من يده لنخرج فقال :

— لاسأبقى إلى نهاية الحفلة وسأريها نفسى حتى تكف عن ملاحقتى . ثم أسرع نحو مقعدها ومر من أمامها ونظر إليها نظرة أودعها كل احتقاره وعاد إلى مكانه بجوارى وجلس صامتاً .

شعرت براحة ، وغمرنى السرور لأنى استطعت أن أحافظ على سمعتى الطيبة وأن أمنع زواج أخى منها ، ولما أضيئت الأنوار أسرع أخى بالخروج فالتفت إلى حسنية ومحمود ورفعت ذراعى ولوحت لهما بيدى إشارة « الوداع إلى الأبد »

عبد الحميد جوده السحار

حـــــلم آثم

أطفئت الأنوار ، وخفتت الأصوات ، وانتهت ليلة المدعوين فى السرادق الكبير ، وابتدأت ليلة العروسين فى غرفة النوم الوردية التى نسقها الزوج ، وزينها بأنوار باهتة خافتة ، تخلق جواً من الفتنة وتجعلها وكراً للسحر والخيال ، وضم فهمى إلهامَ إلى صدره ، وغابا فى قبلة طويلة تنم عما يعتلج به قلباهما من سعار .

وغمغم : ها قد تحققت أحلامنا ياإلهام ، أصبحنا زوجين ، روحاً فى جسدين ، لم أعد وحيداً ، أصبحت لى وكان حسبى أن يؤنسنى طيفك فى وحدتى ، أصبحنا زوجين ، ما أحلى رنين هاتين الكلمتين فى أذنى .

ولمح لؤلؤتين حائرتين فى مقلتيها فقال :

— أتبكين . . ليلة زفافنا ؟ — إنى سعيدة . .

فقبل عينيها . ثم خلع ملابسه ، ولبس منامته (بيجامته) ، ولبست إلهام قميص نومها ، واتجها إلى فراشهما .

— أتذكرين ياإلهام ماتعاهدنا عليه يوم اتفقنا على الزواج ؟

— أجل ، ألا ندع شيئا يخدش سعادتنا .

— وأن تكونى لى الأم والأخت والحبيب .

— وأن تكون لى الأب والأخ والعشيق .

— وأن نواجه العالم سويا ، نتقاسم حلو الحياة ومرها ، وإن كنت آمل أن لن نذوق من مرارة الحياة شيئا .

ثم ضمها إليه وراح يمطرها بقبلاته .

— لكم أتمنى يا إلهام أن أحملك بعيداً .. إلى مكان لم تطأه قدمان من قبل ..   — ولم يافهمى ؟

— لأنأى بك عن الناس حتى لا يرى وجهك غيرى ، إنى أغار عليك يا إلهام .. — ألم نتفق على أن تخفف من غيرتك ؟

— ما الغيرة إلا صورة من صور الحب . أيسوءك أن أعلن لك عن حبى ؟ ..   — بل ما أسعدنى بذلك .

— كنت أحلم بالسعادة ، وكان خيالى يصورها فى صور بهيجة جميلة ، وكنت أحسب أن جمال الخيال لا يتسامى إليه جمال ، ولكنى الآن وأنت معى أيقنت أن الحقيقة أروع من الخيال .

* * *

واستيقظ العروسان فى الضحى وراحا يجوبان العش الجميل ، وقال فهمى :

— هذه غرفة الزوار ، لكن ما حاجة أمثالنا إلى زوار ، فما عندنا من الوقت ما نضيعه معهم ، تبسمين ؟ إنى أقرأ ما تنطق

به عيناك .. لا والله لست مداهناً .. وبلغا حجرة المكتب فقال :

ــ مكتبى وكتبى ، لا أستسيغ الحياة بلا قراءة ، وأرجو ألا تغارى من كتبى إن بقيت معها ساعة من نهار .

ــ اطمئن ، فلن أغار من كتبك ، ولن أعتبرها ضرة لى ، فإنى - مثلك - أحب القراءة .

وأخذت إلهام تقلب فى الكتب وتناولت كتابا راحت تتفرسه فقال فهمى :

ــ فرويد ، هل قرأته ؟ ــ تصفحته فقط .

ــ لابد من دراسته .

فجلست إلهام على مقعد قريب ، وفتحت الكتاب ، فهجم فهمى عليها وخطفه منها :

ــ لا . ليس الآن ، فيما بعد ... ، فيما بعد ، لا وقت عندنا لفرويد ولا لغيره .

٭٭٭

وتصرمت الأيام ، ورفرفت السعادة بجناحيها على العش الجميل ، وفى ليلة من ليالى الصيف آوى الزوجان إلى مضجعهما ، واستغرقت الزوجة فى نوم هادىء عميق ، وأرق الزوج وراح يتقلب فى الفراش ، وحاول النوم ، ولكن لم تغمض له عين ، وانتصف الليل أوكاد ، ومازال النوم مخاصما عينيه . فجلس فى فراشه ، وفكر فى الذهاب إلى مكتبه ، ثم حانت منه التفاتة إلى

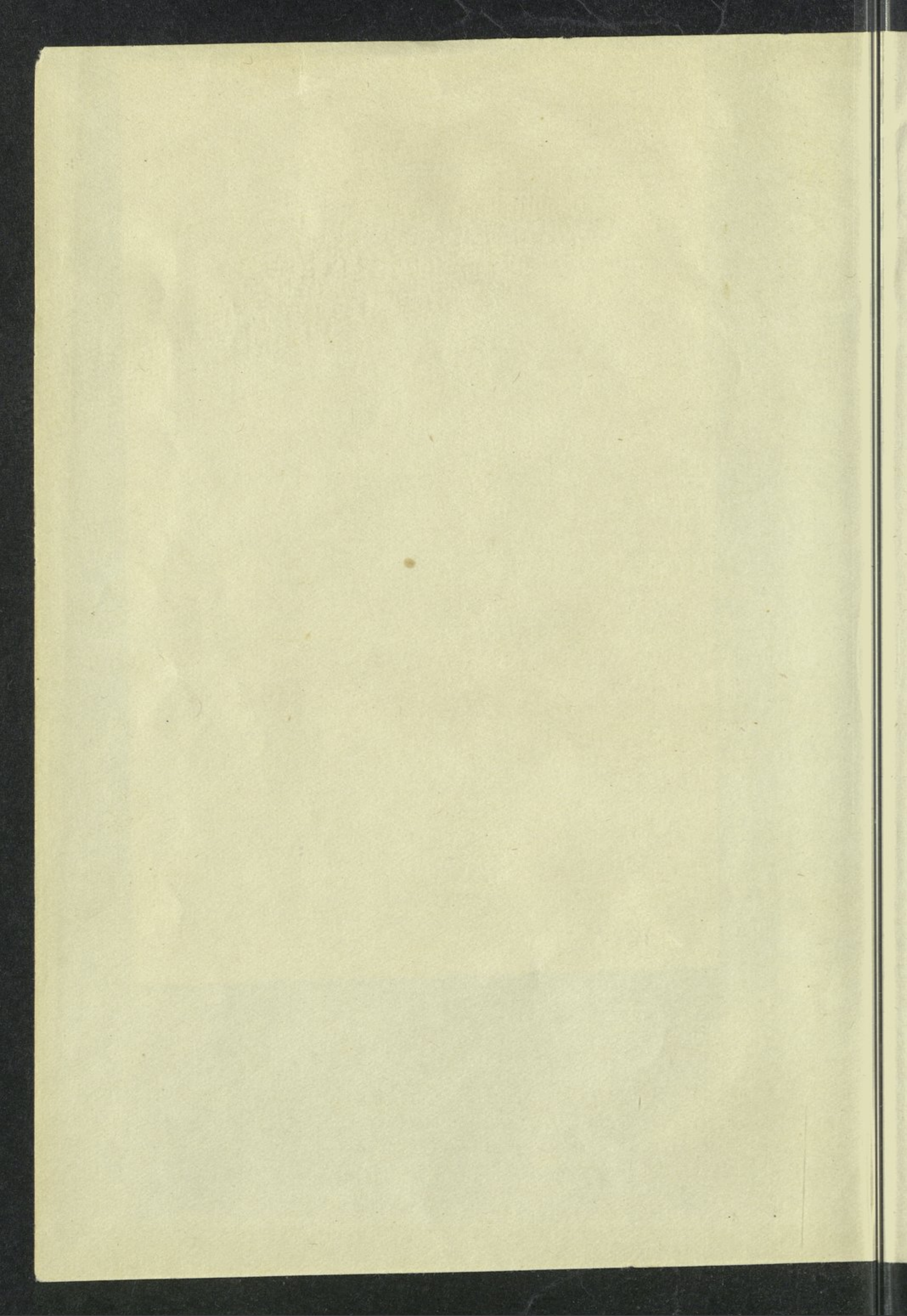
زوجه ، فألفى ابتسامة حلوة توشك أن تولد على شفتيها ، إنها مستغرقة فى حلم جميل ، لله ما أحلاها . وانحنى عليها وهم أن يختلس منها قبلة، لكنه سمعها تهمس : « لا يا محمد ، ليس الآن ، حاذر فقد يدخل زوجى » فانتفض كمن لدغته عقرب ، وأحس كأن خنجراً يغوص فى قلبه ، وانبهرت أنفاسه ، وتفصد العرق منه ، وسقط فريسة لعقله وقلبه ، صاحا به « خانتك ولا ريب وانهارت آمالك وأحلامك ، وشربت كأس الغضاضة وكنت تحسب أن لن تذوق المر أبدا ، لكم شيدت صروح الأمانى ، وهاهى ذى قصورك تنهار على رأسك بين عشية وضحاها » . فثار وصاح: « أهذا جزائى، أنا الذى وهبتها الروح والحياة » ، وخطر له أن يلطمها لطمة تقطع عليها حبل استرسالها فى حلمها الآثم فهتفت به نفسه : « هيهات ، انتهى كل شىء ، طعن القلب وما لجراح القلب من دواء » وراح يغمغم ، « أنا من كنت أغار عليها من النسيم أسمع من شفتيها هذا الاعتراف؟! انقطعت بيننا الأسباب ولن يظلنا سقف واحد » ، وراح يقطع الغرفة كوحش جريح ، وابتدأ فى نفسه همس خفيف . وراح هذا الهمس يرتفع رويداً رويداً حتى أصبح صوتا واضح النبرات : « أضغاث أحلام .... أضغاث أحلام » . فطأطأ بصره وراح يفكر فى هذا الصوت الجديد ، صوت البشير . وكاد يركن إلى الداعى الرحيم ، ولكن

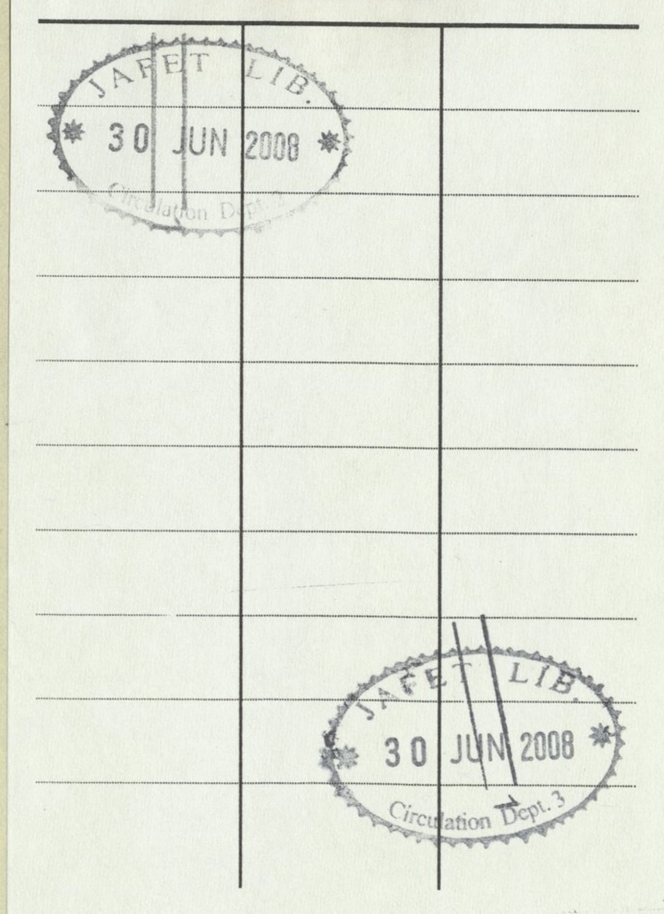
تمرد عقله وقلبه عليه وصاحا به : « لا ، فما هذه أضغاث أحلام ، إن مارأته فى منامها لهو ما اشتهته فى يقظتها ، ولم لا يكون مارأته فى منامها صدى لما وقع فى يقظتها ، فاختزن عقلها الباطل صور الخيانة ، فلما نامت أمدها ببعض مايحوى من صور . محمد هذا فى حياتها مافى ذلك شك ، وقد وقع بينه وبينها ماوعته ، ياللك من مخدوع ، كيف غاب عنك أن هناك رجلا بينك وبينها ؟ ! ، إنها ما كانت تسبل عينيها وهى بين أحضانك إلا لترى نفسها بعين خيالها بين أحضانه هو ، لقد كنت الزوج وكان غيرك حبيب القلب »

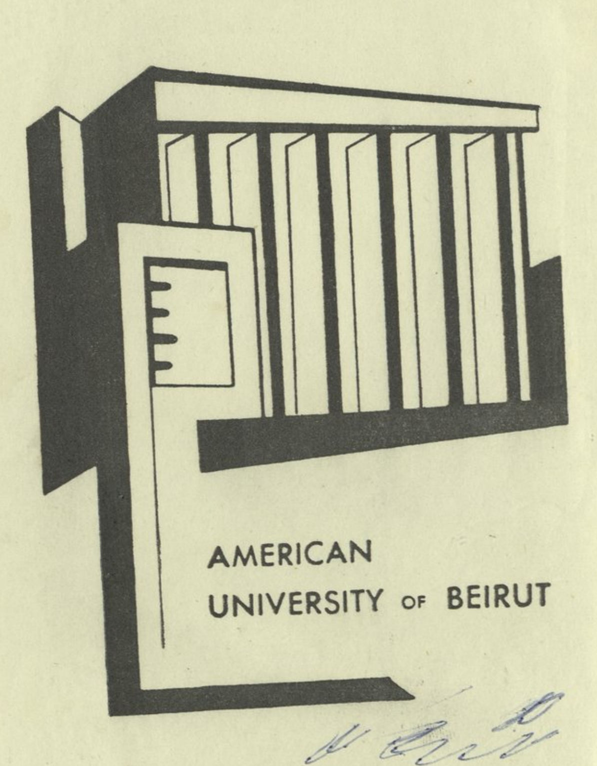
فثارت نفسه ، وازدادت النار فى صدره اندلاعاً ، وحانت منه التفاتة نحوها فألفاها مازالت نائمة ، وقد ولدت الابتسامة على شفتيها ، وأشرق وجهها ، فأحس مقتاً هائلا نحوها وغمغم :

— ما علىّ لو شوهت جمالك هذا بيدى ، أو طعنتك طعنه مزقت بها قلبك كما مزقت قلبى ؟ ! ولكن لا . إن كل ما بيننا الآن هى كلمة ، وقد نطقتها ، فلن أعيش معك أبداً . لن أعيش معك أبداً »

ولم يطق البقاء أكثر من ذلك ، فلبس ملابسه على عجل ، وخرج إلى الطريق هائماً على وجهه ، وابتلعه الظلام بعد أن قوض الحلم الآثم العش الجميل .




DATE DUE
JAFET LIB.
30 JUN 2008
Circulation Dept.
JAFET LIB.
30 JUN 2008
Circulation Dept. 3


AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

